الرابطة

الرابطة

* شهـادات الحـج وثائق حضارية وقيم جمالية
* عادات الشعوب في استقبال الحجيج

السنة ٥٧ العدد ٦٥٩ ذو الحجة ١٤٤٢هـ. يوليو ٢٠٢١م

العيسى: هذا التكريم الأممي يعني الكثير ويحفز على بذل المزيد لخدمة السلام

شهرية. علمية. ثقافية. تصدرها رابطة العالم الإسلامي

السنة ٥٧ العدد ٦٥٩ ذو الحجة ١٤٤٢هـ. يوليو ٢٠٢١م

ميلاد جديد

الحج بمثابة الميلاد الجديد للحاج. هذا ما يؤكده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" (متفق عليه).

ولكي يستحق الحاج هذا الميلاد الجديد، عليه أن يؤدي شعائر الله مستشعرًا مقاصدها ومعظمًا لها، متجنبًا كل ما يضعف الحج ويعكر صفوه.

وأول المقاصد توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وتحقيق تقوى الله وإقامة الذكر وتعظيم حرمات الله.

إن الأصل في العبادات الشرعية تحصيل مقاصدها وليس الاقتصار على هيئتها الظاهرة.

فلو أخذنا مقصد ذكر الله على سبيل المثال، فإن الحج كله ذكر لله تعالى ابتداءً من التلبية، وانتهاءً بالتكبير، وأثناء الطواف، والدعاء في صعيد عرفة وفي مزدلفة، "فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم".

ولعل من ضعف حضور المقاصد عند الحاج، عدم العناية بالذكر، وعدم استشعار معية الله تعالى عند أداء الذكر.

ومن المقاصد شهود المنافع، والاجتماع والائتلاف. وبذا يكون الحج منجمًا لما لا يُحصى من المنافع: الدينية والدنيوية، فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره من العبادات، ففيه فرصة نادرة لحصول العلم والمعرفة، ونيل فوائد الأسفار والانفتاح على الثقافات وتجارب الشعوب. وداخلٌ في عموم هذه المنافع رجوع الحاج كيوم ولدته أمه. ولا يُعرف ما وعد الله تعالى به من المنافع على التعيين، ولذلك جاءت كلمة منافع بصيغة التنكير في الآية الكريمة: "ليشهدوا منافع لهم".

ومن أعظم المنافع اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد، ليتلقى بعضهم من بعض. فالمسلمون أمة اجتماع، وعباداتهم دالة على ذلك، فهم يجتمعون خمس مرات في اليوم ويجتمعون كل جمعة ويجتمعون في العيدين. أما الحج فهو الموسم الأعظم لاجتماع المسلمين من كل أنحاء الأرض ليشعروا بالوحدة الإسلامية الجامعة والمصير المشترك.

أما تعظيم شعائر الله تعالى وحرماته فهو ثمرة لتعظيم الله، فمن عظَّم الله عظم دينه وعظّم العبادة التي يتقرب بها إلى ربه. وللأسف فإن بعض الحجاج ربما تغافلوا عن ذلك، أو تشاغلوا باللهو والأنس فضيَّعوا عبادتهم سدى.

ومن التعظيم المأمور به، تعظيم البيت والمسجد الحرام واغتنام فضل الصلاة فيه، والتقيد فيه باتباع النظام وعدم إظهار ما لا يليق من الأفعال والأقوال، والحرص على النظافة فيه وفي كل المشاعر المقدسة.

وداخل في تعظيم الحج إخلاص القصد لوجهه الكريم في حج البيت والحذر من السمعة والرياء، وكف الأنفس من كافة المحظورات من الرفث والفسوق والجدال التي تلوث صفحة الحج.

ولعل من أسوأ المظاهر التي ابتلي الناس بها في السنوات الأخيرة: هذا الجدال والمنازعة في أمور السياسة والانحياز للطوائف والانتصار للأحزاب والفرق، وتخلَّق في هذا الجمع الكبير بأخلاق التواضع والصبر والمرحمة، وترفع عن الغلط والإساءة.

هكذا يحظى الحاج بالميلاد الجديد وهذا الموعود الأكبر، فهنيئًا لمن رجع بالحج المبرور الذي ليس له جزاءٌ إلا الجنة.

الرابطة

شهرية - علمية - ثقافية

المدير العام للاتصال والإعلام

أ. عبدالوهاب بن محمد الشهري

رئيس التحرير

د. عثمان أبوزيد عثمان

مدير التحرير

ياسر الغامدي

المراسلات:

مجلة الرابطة ص.ب ٥٣٧ مكة المكرمة

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٣٠٩٣٨٧

فاكس: ٠٠٩٦٦١٢٥٣٠٩٤٨٩

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير

البريد الإلكتروني:

mwljournal@themwl.org

الموضوعات والمقالات التي تصل إلى مجلة «الرابطة» لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاطلاع على النسخة الإلكترونية للمجلة الرجاء زيارة موقع الرابطة على الإنترنت: www.themwl.org

طبعت بمطابع تعليم الطباعة

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣٤٣ - ردمد: ١٦٥٨-١٦٩٥

العيسى: هذا التكريم الأممي يعني الكثير ويحفز على بذل المزيد لخدمة السلام 4

العيسى يزور كاتدرائية نيس الفرنسية 8

عادات الشعوب في استقبال الحجيج 20

العدد: ٦٥٩
ذو الحجة ١٤٤٢ هـ - يوليو ٢٠٢١ م

الحج صور ومواقف وعبر 29

دارة الملك عبد العزيز.. مساهمات مهمة في رعاية تاريخ الحرمين الشريفين 36

دعم الجامعات لرفع الوعي البيئي

القاهرة – الرابطة

اختتمت في القاهرة أعمال المؤتمر الدولي "دور الجامعات في ترسيخ الوعي البيئي نحو تحول الأرض إلى بيئة صحية" الذي عقدته رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع الاتحاد العربي للتنمية المستدامة والبيئة.

وجاء في كلمة لمعالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي رئيس رابطة الجامعات الإسلامية، ألقاها بالنيابة عنه الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية الدكتور أسامة العبد أن التصحر مشكلة عالمية تعاني منها دول عديدة، وأن على الجامعات الإسهام في وضع الخطط المناسبة للحفاظ على البيئة.

وأصدر المؤتمر توصية بتوفير كافة أشكال الدعم للجامعات حتى تتمكن من النهوض بدورها في رفع الدعم البيئي.

العيسى: هذا التكريم الأممي يعني الكثير ويحفز على بذل المزيد لخدمة السلام

جنيف:

منحت الأمم المتحدة عبر جامعتها الأكاديمية للسلام درجة الدكتوراه الفخرية لمعالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الشيخ الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسى، وذلك في احتفاء كبير أحيته في مقرها بجنيف، بحضور نائب الأمين العام للأمم المتحدة ورئيس لجنة الخدمة المدنية الدولية السيد جاكتا، ونخبة من القيادات الدينية والفكرية والسياسية والبرلمانية الأوروبية، حيث جاءت الحيثيات أن هذا التكريم الأكاديمي الأممي للدكتور العيسى عبر جامعة السلام بالأمم المتحدة جاء تقديراً لجهوده المتميزة في دعم الدبلوماسية الدولية، وتعزيز الصداقة والتعاون بين الشعوب، ونضاله المؤثر في مكافحة الكراهية.

وألقى معالي الشيخ العيسى كلمةً عبر فيها عن شكره وتقديره لهذا التكريم المحفز لبذل المزيد من العمل في خدمة السلام، كونه جاء

من جامعة مرموقة قدمت إسهامات عالمية مشهودة في خدمة السلام العالمي، إضافة إلى أنها أنشئت وفق معاهدة دولية خصيصاً لهذا الغرض النبيل.

ونوه الدكتور العيسى بدور الجامعة الكبير في خدمة السلام، مستفيدة من ثقلها الأممي .

من جانبه، ألقى نائب الأمين العام للأمم المتحدة السيد جاكتا، كلمة أشاد فيها بالتقدير الذي يحظى به معالي الدكتور العيسى على نطاق واسع باعتباره شخصية دولية رائدة للاعتدال الديني والفكري، وأنه يواصل العمل الجاد لإيصال رسالة الإسلام المعتدل والتعايش السلمي حول العالم، ويبذل جهوداً لتوعية الأقليات المسلمة مستعرضاً جهوده حول العالم.

نائب الأمين العام للأمم المتحدة: د.العيسى يحظى بالتقدير على نطاق واسع باعتباره شخصية دولية رائدة للاعتدال الديني والفكري

الجامعة قدمت إسهامات عالمية مشهودة للسلام العالمي.. وتؤسس بمناهجها للقيم الإنسانية المشتركة

وأضاف السيد جاكتا قائلاً: "يعتبر د.العيسى شخصية فريدة حيث قاد أكبر وفد إسلامي لزيارة معسكر الاعتقال والإبادة النازية في ألمانيا.

بدوره أكد الدكتور فرانسيسكو روخاس، رئيس جامعة الأمم المتحدة للسلام أن منح درجة الدكتوراه الفخرية للدكتور محمد العيسى هو اعتراف بمساهماته الفردية وجهوده الإنسانية في مجال السلام وحل النزاعات ونشر الوئام.

ولفت إلى أن جامعة السلام منذ تأسيسها منحت هذه الدرجة الفخرية لنخبة من الشخصيات المتميزة، تضمنت خمسة رؤساء دول سابقين وغيرهم ممن ينحدرون من جنسيات مختلفة وخلفيات دينية مختلفة.

وأضاف: "تتشرف جامعة السلام بمنح درجة الدكتوراه الفخرية للدكتور محمد العيسى الذي يحظى باعتراف واسع النطاق باعتباره الصوت العالمي للاعتدال الديني، ونظير التزامه بتوعية العالم أجمع بالقيم الدينية التي تتمثل في التعاطف والتفاهم والتعاون بين بني البشر، وقد كان الدكتور محمد العيسى رائداً في بناء شراكات جديدة بين المجتمعات والأديان والأمم".

يُذكر أن جامعة السلام تتمتع بمكانة عالمية مرموقة، إذ أُنشئت بموجب معاهدة في الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٨٠، بحرم رئيسي في كوستاريكا ومكاتب في روما وأديس أبابا ونيويورك وجنيف ولاهاي ومانيلا وبكين وغيرها، وتتمثل رسالتها الرئيسية في خدمة الإنسانية بمؤسسة دولية مرموقة في التعليم العالي بهدف تعزيز روح التفاهم والتسامح والتعايش

"رئيس الجامعة: د.العيسى يحظى باحترام عالمي نظير التزامه بتوعية العالم أجمع بالقيم الدينية الحقيقية

السلمي بين بني البشر، والعمل على تخفيف العقبات التي تعتري طريق السلام العالمي بما يتوافق مع ميثاق الأمم المتحدة، وتقدم إسهامات دولية فريدة من نوعها في دراسات السلام والصراعات وتسوية المنازعات والقانون الدولي وحقوق الإنسان وحماية البيئة والأمن، إذ تمنح درجتي الماجستير والدكتوراه في هذه البرامج للممارسين وصانعي السياسات وهم الفئة المستهدفة، إضافة إلى أنها تمتلك تفويضاً عالمياً لمنح شهادات علمية معترف بها من جميع البلدان الأعضاء في الجمعية العامة، ويرأسها فخرياً الأمين العام للأمم المتحدة.

وسط حفاوة كبيرة من رئيسها والعاملين بها

العيسى يزور كاتدرائية نيس الفرنسية

معالي الأمين العام الشيخ د. محمد العيسى يزور كاتدرائية نيس الفرنسية التي تعرضت في وقت سابق لهجوم إرهابي، مؤكداً أن الإرهاب لا دين له ولا زمان ولا مكان، حضر اللقاء الجالية الإسلامية التي ثمنت عالياً دلالة الزيارة وأهميتها.

اتصال هاتفي بين رئيس جمهورية السنغال والأمين العام

في اتصال هاتفي بين فخامة رئيس جمهورية السنغال السيد مكي سال ومعالي الأمين العام رئيس هيئة علماء المسلمين الشيخ د. محمد العيسى أثنى فخامته على الدور الذي تقوم به رابطة العالم الإسلامي في خدمة الإسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء، مؤكداً على كفاءة تمثيلها للعالم الإسلامي.

العيسى يلتقي رئيس مجلس علماء باكستان

التقى معالي الشيخ د. محمد العيسى برئيس مجلس علماء باكستان والممثل الخاص لرئيس الوزراء الباكستاني للوئام وشؤون الشرق الأوسط فضيلة الشيخ حافظ محمد طاهر الأشرفي.

بيان مشترك

زار وفد ألماني برئاسة الأستاذ أيمن مزيك، رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، رابطة العالم الإسلامي في المملكة العربية السعودية في الفترة الممتدة بين ١٠ و١٣ يونيو ٢٠٢١ الموافقة لـ ٢٩ شوال - ٣ ذو القعدة ١٤٤٢ هـ، وقد التقى الوفد بمعالي الشيخ الدكتور محمد بن عبد الكريم العيسى، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ورئيس هيئة علماء المسلمين ، في مكتبه في الرياض يوم الجمعة ١١ يونيو ٢٠٢١ الموافق ٠١ ذي القعدة ١٤٤٢هـ، وصدر عن الجانبين البيان المشترك التالي:

انطلاقا من أهمية التعاون المشترك بين رابطة العالم الإسلامي باعتبارها المرجعية الأولى للمسلمين من قبلتهم الجامعة ومظلة الشعوب الإسلامية، وحاضنة علماء، ومفكري، وشباب العالم الإسلامي وتقديرا للدور المشهود لها عالميا في إفشاء السلام، ومناهضة الغلو، والتطرف، والدعوة إلى الاندماج الإيجابي، والتعايش، والتعاون بين مختلف طوائف المجتمع الواحد على أساس المواطنة الحقة.

وانطلاقا من الثقل الإسلامي، والعالمي لرابطة العالم الإسلامي، وبالتعاون مع المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا باعتباره أهم المنظمات الإسلامية في ألمانيا، والذي تتركز أهدافه على القضايا المتعلقة بتأطير الشأن الديني، وتعليم التربية الإسلامية، وتمثيل المواطنين المسلمين أمام السلطات والمؤسسات الرسمية، ولدى الإعلام، والهيئات الدينية، ومؤسسات المجتمع المدني؛ وما يقوم به في سبيل جعل المكون الإسلامي (باعتباره جزءا من المجتمع الألماني) متميزا بقيمه الدينية السمحة، تم التفاهم حول عدد من القضايا منها:

تعزيز العمل المشترك، ونشر الوعي بقيم المواطنة الحقة. وإيجاد برامج لدعم الاندماج الإيجابي بالتعاون مع جهات الاختصاص، ودعم البرامج الخاصة بوثيقة مكة المكرمة، وتفعيلها على نطاق واسع. واعتبر البيان أن وثيقة مكة المكرمة، وثيقة تاريخية لتعزيز السلام، وتكريس ثقافة التسامح، والتعايش السلمي بين المجتمعات الإسلامية، وغير الإسلامية، للتعاون مع كافة الجهات الداعمة للسلام، والتعريف بالإسلام، ومبادئه السمحة، ونشر الوسطية. والاعتدال، ومكافحة الغلو، والتطرف، وعنصرية عداء المسلمين، وبيان موقف الإسلام الحنيف من الحركات المتطرفة، والتيارات المنحرفة.

تتقدم
رابطة العالم الإسلامي
بالتهنئة للشعوب الإسلامية كافة بمناسبة حلول
عيد الأضحى المبارك
أعاده الله على الجميع باليمن والبركات
رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE

شهد توقيع مذكرة تفاهم

العيسى يلتقي رئيس جمهورية غامبيا

التقى معالي الأمين العام الشيخ د. محمد العيسى بفخامة رئيس جمهورية غامبيا، السيد آداما بارو، بمقر المتحف الدولي للسيرة النبوية بالمدينة المنورة، حيث جرى بحث عددٍ من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك. كما شهد اللقاء توقيع مذكرة تفاهم بين رابطة العالم الإسلامي ومؤسسة فاب الخيرية، لتنفيذ حزمة من المشروعات الإغاثية والتنموية الشاملة.

العيسى يستقبل نائب وزير الخارجية الأمريكي لشؤون شبه الجزيرة العربية

التقى معالي الشيخ د. محمد العيسى، نائب وزير الخارجية الأمريكي لشؤون شبه الجزيرة العربية السيد دانيال بنيام، حيث جرى بحث عدد من الموضوعات ذات الاهتمام المشترك، بحضور القائم بالأعمال بالسفارة الأمريكية لدى المملكة السيدة مارتينا سترونغ، والمسؤولة السياسية بالسفارة السيدة إليزابيث نورمان.

الرابطة تستنكر بشدة استمرار الأعمال الإرهابية للميليشيا الحوثية بالمملكة

أدانت رابطة العالم الإسلامي باستنكارٍ شديدٍ استمرار الميليشيا الحوثية الإرهابيَّة في هجماتها التصعيديَّة الخطرة والمتتالية ضد الأهداف المدنيَّة في المملكة العربية السعودية.

وأكدت الرابطة على لسان معالي أمينها العام رئيس هيئة علماء المُسلمين الشيخ الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسى أن إطلاق ما مجموعه (١٧) طائرة مُسيَّرة مُفخَّخة خلال (٢٤) ساعة تجاه أهداف مدنيَّة في المُدن السعوديَّة يؤكد السلوك الإجرامي "المتأصل" لدى هذه الميليشيا "الانقلابية" "الإرهابية"، واستمرارها في خرق كافة القوانين والمواثيق والأعراف الدوليَّة.

واعتبرت الرابطة أن هذه الهجمات (التي لم تُسفر بحمد الله عن وقوع أي ضحايا) تعكس مستوى الهمجية وحالة الهوان واليأس التي تعاني منها هذه الميليشيا، فيما تؤكد المملكة العربية السعودية بمواجهتها لهذا السلوك الإرهابي قدرتها التامة على حماية أراضيها وإسكات هذا العبث الإجرامي، مع التزامها الأخلاقي الرفيع النابع من قيمها الدينية والوطنية واحترامها للقوانين والمواثيق والأعراف الدولية وذلك في قيادتها للتحالف العربي لدعم الشرعية اليمنية.

وأكد البيان وقوف رابطة العالم الإسلامي مع كُل ما تتخذه حكومة المملكة العربية السعودية من سُبل لحفظ أمنها واستقرارها وسلامة مواطنيها وأراضيها.

رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE

themwl.org mwlorg

تهنئ

رابطة العالم الإسلامي

جمهورية مصر العربية

بيومها الوطني وتتمنى لها
دوام التقدم والازدهار

تهنئ

رابطة العالم الإسلامي

جمهورية المالديف

بيومها الوطني وتتمنى لها
دوام التقدم والازدهار

+80
مليون
لاجـــئ
تدعمهم
رابطة العالم الإسلامي
من خلال
حملات الإغاثة العاجلة
تأهيل الكوادر لمساندتهم
الدعم المادي للمنظمات الأممية والحكومية التي تعنى بشؤونهم
رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE
themwl.org
mwlorg

شهادات الحج
وثائق حضارية وقيم جمالية

بقلم: أ.م.د محمد أحمد عبد الرحمن عنب
كلية الآثار- جامعة الفيوم

يحتلّ الحَج مكانةً كبيرة في نفوس المسلمين جميعًا؛ فهو الركن الخامس من أركان الإسلام، وفريضة افترضها الله تعالى على عباده لمن استطاع إليه سبيلا. يقول تعالى "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"؛ ويُعدّ الحَج أعظم مؤتمر عالمي في التاريخ، يتكرر كل عام مرة واحدة، وله أبعاد تربوية إضافة إلى أبعاده الأخرى الدينية أو السياسية أو الإجتماعية أو النَفسية، وقد حرص المسلمون على توثيق أدائهم لهذه الشعيرة الدينية. وتعتبر شهادات الحَجّ أبرز الأمثلة على توثيق رحلة الحَجّ، ولهذه الشهادات أهمية حضارية وتاريخية وجمالية كبيرة.

مفهوم شهادات الحَجّ:

شهادة الحَجّ هي مستند رسمي وقانوني يشهد على حقيقة أن شخصًا مُعيّنًا قد أدى فريضة الحَجّ، كما اصطلُحت شهادات الحَجّ أيضًا على مَنْ قام بأداء العُمرة، فهي تُطلق على كليهما -الحَجّ والعُمرة- دون تمييز، وتحمل هذه الشهادات اسم الشخص الذي أدّى فريضة الحَجّ أو العُمرة بنفسه جسديًا، أو اسم الشخص الذي أنابه عنه فيما يُعرف بِحَجّ البدل أو النيابة في الحَجّ؛ وهي أن يُوكل الشخص شخصًا آخرَ عنه في أداء الحَجّ، وقد أجمع جمهور العلماء على مشروعية الحَجّ عن الغير، وقابليته للنيابة، بشرط أن حَجّ البدل يكون عن المريض مرضًا لا يُرجى برؤه، أو عن العاجز ببدنه، أو عن الميت.

شهادات الحَجّ: أسباب ظهورها وطرق تنفيذها:

تُكتب هذه الشهادات على الورق السميك لتبقى سليمة فترةٍ طويلة، ويكون هذا الورق من النوع المصقول الأصفر غالي الثمن ويُعرف بـ(العبادي)، وكان يتم تنفيذها على هيئة لفائف لسهولة النقل والتخزين. في بدايتها كانت هذه الشهادات عبارة عن وثائق مكتوبة بخط اليد وتكون مُلوَّنة ومُذهّبة، وتجمع بين النص المكتوب وبعض الصور المرسومة باليد للمحطات الرئيسية في مشهد الحَجّ. وسبب ظهورها أنه لما كانت هناك صعوبة ومشقة كبيرة في الحَجّ وخصوصًا على النساء، حرص الأشخاص الذين يُيسّر الله لهم الذهاب للحَجّ أو الذين يرسلون من ينوب عنهم على اقتناء هذه الشهادات التي تمثل وثائق تذكارية

يتوارثهـــا أبناؤهـــم وأحفادهم وكانـــوا يُعلّقونها ويُزيّنون بهـــا واجهة المجلس في المنزل أو تحفظ في الأرشيف الأسري، وكانت مصدرًا للفخر والتباهي؛ وكانوا يتبرّكون بها ويتبرّك بها كل من يشاهدها ويلمســـها. (علي الخلافي، ذكريات مراسيم الحج في وثيقة تاريخية نادرة، ص ص٢٦-٢٨).

وقد تكون شـــهادات الْحَجّ صيغًا جاهزة رســـمت لوحاتها وكُتبت نصوصها الثابتة قبل موعد الْحَجّ من قبل الرسّام والخطّاط، وتُترك فراغات يكتب بها اسم الشـــخص المعني وأسماء الشهود، وكذلك التاريخ والعام.

وقد عثر على أقدم وأكبر نماذج لشهادات الْحَجّ في الجامع الأموي بدمشق، يرجع تاريخها إلى العصر السُـــلجوقي والعصر الأيوبي، وقـــد نقلها الولاة العثمانيون من دمشق إلى إستانبول عام١٨٩٣م، وحفظت في الأرشـــيف الإمبراطـــوري العثماني في اســـتانبول، وتتميّز في تصاميمها وأحجامها وأطوالها وموادها الخـــام، وتتباين كذلك من حيث حَجّ الوكالة أو الْحَجّ عن الأموات أو الْحَجّ عن النفس وغير ذلك.

ويبدو أن إصدار شـــهادات الْحَجّ المُصوَّرة قد تضاءل خلال القرن الثالث عشر الميلادي، لكنها لم تختفِ تمامًا، وقد أعيد إحياؤها خـــلال العصر العثماني. وتنتشر نماذجها العديدة بمختلف المتاحف العالمية وكذا المجموعات الخاصة. وما تزال هذه الشـــهادات موجودة حتى حلّت محلها قبل بضعة عقود وثائق جاهزة مطبوعة مزدانة بصور الحرم المكي والمسجد النبوي بالمدينة المُنوّرة. ثم أصبحت شـــهادات الْحَجّ المطبوعـــة من الســـلع الأساســـية التي يحرص الحجيـــج علـــى اقتنائهـــا، وتتميّز بأنهـــا متاحة للجميع بأســـعار مناســـبة على عكس شهادات الْحَجّ المكتوبة والمزوّقة التي كان لا يقتنيها إلا عدد قليل من الأثرياء.

أهمية شهادات الْحَجّ:

تعتبر هذه الشـــهادات وثائق غايـــة في الأهمية توثّق لرحلة الْحَجّ المقدّســـة قبل اختراع التصوير الفوتغرافـــي الحديث، ونســـتطيع مـــن خلالها بجانب كتب الرحلات والمصادر التاريخية وتصاوير المستشـــرقين الأوروبيـــين اســـتقراء العديد من الجوانب الحضارية والتاريخية للحضارة الإسلامية. فلهذه الشهادات أبعاد دينية تشريعية، وسياسية وحربيـــة، واقتصاديـــة، واجتماعيـــة وتاريخيـــة، وجغرافية، وفنية. وتكمـــن أهميتها بما تضمّنته من رســـوم توضيحية تعتبر مـــن النماذج المبكرة لتصوير رحلة الحج والأماكن الإسلامية المقدسة قديمًا، فمن أهميتها الجغرافية أنها تســـاعد في معرفة طرق الْحَجّ ودروبـــه القديمة. ومن أهميتها العمرانيـــة والطوبغرافية أنها تســـجّل وتوضح التغيُّرات المادية في بيئة مكة المُكرّمة العمرانية وأماكنهـــا وضواحيها كجبل عرفـــات ومزدلفة ومِنَى وغيرها.

كما أنّ لهذه الشـــهادات أهمية معمارية كبيرة؛ حيث تلقي رســـوم هذه الشـــهادات الضوء على مختلف أنـــواع العمائـــر الموجودة فـــي الأماكن المقدّسة من المساجد والقباب الجنائزية والمقاصير والمنابر والجواســـق والمرافق الخدمية كالســـواقي والآبـــار الموجودة على دروب الحـــج القديمة وغيرها. فهي تعكـــس أشـــكال التصميمـــات المعمارية والتخطيطـــات الهندســـية لهـــذه المنشـــآت، وعناصرها ومختلف وحداتها المعمارية وملاحقها، وأيضًـــا مواضعها وهيئاتها الإنشـــائية وزخارفها الداخلية والخارجية. وتســـاعد هذه الشهادات في معرفة التغيُّرات والزيادات التي كانت تطرأ عليها دومًا بين كل حقبة وأخـــرى، وأهم الإضافات التي

تمّت عليها، كما أنه بمقارنة رسوم هذه الشهادات الأقدم منها فالأحدث يمكن استقراء التصميم الأصلي للمنشآت، فهي بذلك تُوثّق المراحل المُبكّرة لهذه المنشآت التي لا تعرف إلا من خلال الأدلة النصية في كتابات الرحّالة والمصادر التاريخية ورسوم المخطوطات القديمة، ولذلك تعتبر هذه الشهادات وثائق مهمة يعتمد عليها في مشاريع الترميم المختلفة لإعادة بناء الشكل الأصلي لهذه المنشآت. (للاستزادة انظر ربيع حامد، تصاوير الحرمين).

ولشهادات الْحَجِّ أيضًا أهمية اجتماعية كبيرة؛ فمن خلالها يمكن استقراء الحالة الإجتماعية خلال الفترة التي نُفّذت فيها الشهادات؛ حيث تُحدّد النقوش والكتابات الموجودة عليها والرسومات التوضيحية المزوقة كيفية أداء الشعائر في ذلك الوقت، وتشرح كيفية الاستعداد للذهاب إلى الأراضي المقدّسة ووسيلة النقل، وأماكن بداية رحلة الْحَجِّ وأهم الأحداث التي يمر بها الحجيج.

شهادات الْحَجّ؛ قيمٌ جمالية وفنية:

لقد مثلت هذه الشهادات بجانب أهميتها السابقة، أهمية فنية وأثرية كبيرة خاصة لدارسي التصوير الإسلامي بسبب محتواها الفني المرتبط بمجال الفنون الإسلامية، فلقد جسدت هذه الشهادات عمومًا مختلف خصائص الفن الإسلامي وسماته المتميّزة والنابعة من روح العقيدة الإسلامية؛ فهي تخلو من الصور الآدمية أو الحيوانية، وتعتبر هذه الشهادات من أنفس وأندر الشواهد الآثارية المخطوطة المعبرة عن التصوير الإسلامي الديني بصفة عامة. وتتميّز في تصاميمها وموادها الخام وأحبارها وتذهيبها ومدارس التصوير التي زوقت بها. وتشهد هذه الشهادات على مدى براعة الفنان المسلم في تنفيذها باتقانٍ شديد، ومن المحتمل أن هؤلاء الفنانين من أهل مكة مما يضيف إلى هذه الشهادات أهمية وقدسية كبيرة؛ فهي تحمل البركة المستمدة من أصولها المادية في المدينة المقدسة.

وتشتمل هذه الشهادات على كتابات إسلامية متنوّعة بمختلف أنواع الخطوط، وتتنوّع مضامينها ما بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأدعية المختلفة بالإستجابة والقبول، وأسماء الشخص الذي أدّى الْحَجّ أو العمرة أو اسم من ينوب عنه ونسبه وألقابه، وتوقيع الشهود على إتمامه للْحَجِّ، كما حرص الخطاط على كتابة بعض أسماء المنشآت والوحدات المعمارية أسفل كل رسمة في توثيقٍ رائع وتأكيدٍعلى ذهاب الشخص ورؤيته لهذه الأماكن.

وقد حظيت هذه الشهادات باهتمام الباحثين الأوروبيين؛ الذين شغفوا بها وبدراستها نظرًا لأهميتها وقيمتها الحضارية والتاريخية الكبيرة. ومن أشهر من قام بدراسة هذه الشهادات دراسة مستفيضة؛ الباحثون الفرنسيون المتخصصون في الدراسات الإسلامية الباحث دومينيك سوردیل Dominique Sourdel (١٩٢١-٢٠١٤) والباحثة جانين سورديل J, Sourdel Thomine، ولهما العديد من المؤلفات لعل أهمها مؤلّفهما الشهير (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي). (نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، دار المعارف، ط٣،١٩٦٤م، ص٣٢٩).

وأخيرًا، تعتبر شهادات الْحَجِّ من كنوز الفن الإسلامي وأحد الشواهد الأثرية المهمة التي تعكس روعة الحضارة الإسلامية، وما تزال تحتاج المزيد من الدراسات العلمية للكشف عن أسرارها العظيمة.

عادات الشعوب في استقبال

الحجيج

متابعة - عبدالله حسين:

تشهد بلاد الحرمين خلال موسم الحج توافد المسلمين من شتى أصقاع المعمورة، لأداء الركن الخامس في الإسلام. وللحج في نفس كل واحد من الحجيج ذكريات ومناسبات خاصة، وعادات وتقاليد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولا يزال بعضهم يتمسك بها قبل قدومهم للحج وحين عودتهم.

في الأسطر التالية نقدم نماذج من العادات والتقاليد في استقبال العائدين من رحلة العمر بعد أن منّ الله عليهم بأداء الفريضة.

الرايات والنثور

في الإمارات العربية المتحدة كانت الاستعدادات تبدأ لاستقبال الحاج برفع الرايات الخضراء على المنازل، فبهذه الرايات يعرف الناس أن الحاج عاد بسلامة الله، فيأتون للسلام عليه وإحضار هدايا بسيطة لتقديمها إلى أهله مثل الفواكه واللحم، وفي المقابل يتلقون هدايا متنوعة يحضرها الحاج معه، أهمها ماء زمزم والسبح والقحفيات (أغطية

من أشهر الأطعمة المقدمة للحاج الطمينة والرفيس والكليجة والكبد

الرأس) وبعض الألعاب البسيطة والحلوى التي يفرح بها أطفال العائلة والجيران.

وما يميز دولة الإمارات هو تزيين المنازل بالأعلام الخضراء التي ترمز للطهارة ولون الجنة، بالإضافة إلى (النثور)، وهي عبارة عن قطع معدنية وحلويات وزهور، تُنثر على رؤوس الحجاج عند عودتهم على صوت أهازيج الترحيب بالعودة.

الخروف والسلال

ويستعد الأهالي في مملكة البحرين قبل قدوم الحجاج بتربية خروف يذبحونه عند قدمي الحاج قبل دخوله بيته، ثم تبدأ مراسم الزفة وتزيين الحجاج بالورود والأهازيج، كما يجري تحضير وجبات طعام توزع على الأقرباء والجيران لمدة أسبوع.

ولا يزال الأطفال يمارسون التقليد الشعبي المعروف بـ"الحيه بيه"، حيث يتزين الأطفال باللباس الشعبي يوم التاسع من ذي الحجة، أي ليلة العيد، ويتجه بعضهم للبحر ليلقي السلال المزروعة بالحشائش والنباتات، مرددين الأهازيج "حيه بيه راحت حيه.. على درب الحنينيه"، وذلك تعبيراً عن مشاركتهم

تختلف العادات بين تزيين البيوت ووضع الرايات الخضراء

الحاج يوم النحر و"الأضحية" التي يقدمها تقرباً إلى المولى عز وجل.

الورود والموائد

ويحظى الجيبوتي لدى عودته إلى بلاده باستقبال كبير وحفاوة بالغة، ويستقبله الأطفال بالورود، فيما البسمة تطغى على وجوه الجميع فرحًا بعودته سالما غانما، كما تقام في بيته موائد عامرة بالمأكولات الشعبية.

وتبقى دار الحاج مشرعة الأبواب أمام الوجهاء والأعيان والشباب الذين يأتون لتلقي الهدايا من التمور، والمصاحف والحلوى، والسجادة وغيرها، والاستماع إلى حديث الحاج حول مناسك الحج، وأهم محطات رحلة العمر، مما يزيد شغفهم وحبهم لهذه البقاع ومشاهدة ما تزخر به من آثار إسلامية ومعالم حضارية.

تزيين المنازل

وفي بلاد الشام تتزين المنازل بمصابيح مضيئة، وغالباً ما تكون على شكل نجوم إلى جانب صور الكعبة، والعائلات الميسورة تقوم بذبح الخراف؛ ليمرّ الحجاج من فوقها ويطبعون أصابعهم من دمائها على جدران المنازل، ويقومون بتوزيع جزء منها على الفقراء.

ويتوافد المستقبلون ليهنئوا الحجاج بعودتهم سالمين، متطهرين من الذنوب والمعاصي والآثام، حيث أصبحت صفحاتهم بيضاء نقية، فيجلسون معهم ليسمعوا منهم عن روحانيات الرحلة المباركة وزيارة المسجد النبوي، حيث يتم توزيع مياه زمزم وأشهى التمور على الضيوف.

المواكب والكليجة

وفي العراق يُستقبل الحجاج بعادات وطقوس متوارثة

لا تزال مستمرة، وتبدأ منذ وصول الحجاج؛ حيث يستقبلهم الأقرباء في مواكب من السيارات في أجواء من الاحتفال والأهازيج، وما يميز استقبالهم للحجاج الفرق الشعبية الموسيقية، التي تجول الحي لاستقبال الحجاج، وتعزف الموسيقى التي يرقص عليها الأطفال، كما تستعد النساء في البيوت بعمل "الكليجة" وهي نوع من أنواع الحلوى الشهيرة.

السعف والولائم

حرارة الاستقبال تكون أشد وأقوى ابتهاجاً وفرحاً في فلسطين بالقادمين من بيت الله الحرام بعد تأديتهم فريضة الحج، فما إن يعلم أهل البلدة باقتراب موعد قدوم ركب الحجيج حتى يباشروا بتزيين البيوت وشوارع الحارات والميادين والدواوين العامة المخصصة لاستقبال الحجاج بالأنوار والزينة مختلفة الأشكال والألوان.

ويتجمع الأهالي عند بيوت الحجاج كي يساعدوا أهل البيت في التنظيف والترتيب وعمل أشكال مختلفة من أكلات فلسطين الشهيرة، وحين وصوله يستقبلونه بالأهازيج ونحر الذبائح وإعداد ولائم يدعون لها أهل القرية، رجالا ونساء، احتفالاً بعودته وبأدائه فريضة الحج، وعيون الأطفال شاخصة تنتظر وصولهم كي ينغمسوا في حضن الجد أو الجدة والتنعم بالهدايا الجميلة المحمولة من الأراضي المقدسة، والتي غالبًا ما تكون جلبابا أبيض مع طاقية وتمر وسُبح وماء زمزم ومصاحف.

وقديماً كان التقليد المتبع في تزيين بيوت الحجاج تعليق سعف النخيل وأغصان الشجر واليافطات التي يظهر عليها اسم الحاج، مع الأمنيات له بأن يكون حجه مبروراً وسعيه مشكوراً، على مدخل المنزل، ويختارون للزينة اللون الأخضر الدال على الخير، وكان المعتقد السائد أن التزيين بسعف النخيل هو

> **تذبح الخراف بين أرجل الحاج وترمى السلال المزروعة في البحر**

نوع من التيمن بالرسول محمد صلى الله عليه وسلّم، في إشارة إلى هجرته من مكة واستقبال أهل المدينة له بهذا النوع من الشجر.

الزينة والطمينة

ويخرج المستقبلون في المغرب العربي إلى المطار لاستقبال الأقرباء والأصدقاء بموكب من السيارات الفخمة (المزينة بأعلام الدولة)، التي قد يضطرون إلى استئجارها أو استعارتها، ومن ثم يتجه هذا الموكب إلى منزل كبير يتم فيه استقبال المهنئين من الجيران والأقارب والأصدقاء.

أما القبائل الكبيرة في الجزائر والمغرب وتونس فتجهز الأصناف المغذية من الأطعمة لتقديمها للحجاج عند وصولهم، ومن ضمنها على سبيل المثال "الطمينة"، وهي أكلة تحضر من الدقيق المزوج بحبات من الرمان والعسل، وفي المناطق الصحراوية أو الجنوبية يحضر طبق "الرفيس" بعجينة التمر، ويسقى بالعسل قبل تقديمه للحاج، أما بالغرب فيتم تقديم كبد الشاة أو العجل الذي تم ذبحه على شرف عودة الحاج، ويستحسن أن تكون مشوية وتقدم في صحن أو آنية من فضة أو نحاس، ويتم ذلك وسط مدائح وأناشيد دينية.

الزغاريد والرسومات

ولا يزال الريف المصري متمسكًا بعادات الاستقبال المتميزة للحجيج، فمنذ أن تحط رحال الحاج الحي

يستقبل بالزغاريد، ويخرج الأقرباء والجيران والأطفال لاستقباله، ويلي ذلك استقبالهم في منزله وتوزيع الهدايا عليهم، وقد يستمر ذلك لأكثر من ثلاثة أيام، أما في المدن المصرية الكبيرة فالاستقبال في المطار هو الترحيب الكبير؛ حيث يتجمع عدد من أفراد العائلة والأصدقاء لاستقبال الحجاج.

وأما البيوت فتحمل رسومات الحجاج والوسيلة التي يسافرون بها، سواءً كانت طائرة، أم سفينة، وتكتب بجانبها بعض العبارات منها (حج مبرور وذنب مغفور)، ويرسم بجوارها خط سير الرحلة: مكة، عرفات، منى، المدينة، ورحلة العودة إلى الديار.

وغالباً ما تحمل الألوان دلالات بعينها، منها اللون الأخضر الذي يرمز للجنّة، واللون الأبيض الذي يحمل دلالة التطهر، كما كان يرسم الأسد تعبيراً عن قوة التخلص من الذنوب.

أما في صعيد مصر، فتجهز بعض العائلات حصاناً مزيناً بزي معين، ويمر الحصان حاملاً الحاج بكل منازل القرية، حيث يستقبله الأهل والجيران ويبادلونه المصافحات والتبريكات، كإحدى العادات المتوارثة.

المزمار والمدرهة

وفي اليمن يجري استقبال الحجاج بنثر الفل والياسمين على وقع زغاريد النساء والأهازيج والأناشيد وقرع الطبول والمزامير وحتى الأعيرة النارية، ثم تعد الولائم التي تقدم للمهنئين وتستمر ثلاثين يوماً، وغالباً ما يتكفل المقتدرون مادياً من الأقارب بالذبائح التي تذبح فور وصول الحاج والتي تجهز منها الولائم.

لقد اعتاد اليمنيون خاصة في المناطق الشمالية إحياء أيام الحج بنصب (المدرهة)، وهي عادة متوارثة

منذ مئات السنين لوداع واستقبال حجاج بيت الله الحرام، ونصب المدرهة أمر شائع سواءً في باحة منزل الشخص الذي يذهب لأداء مناسك الحج أو أحد جيرانه، و(المدرهة)، عبارة عن أرجوحة تصنع من الأخشاب القوية، يتم ربط أعمدتها بسلاسل حديدية أو حبال قوية ومتينة.

ويتحرى الأهل عن أهمية توثيق أعمدتها خشية انقطاعها، لأن انقطاعها يحمل اعتقاداً ينذر بالشؤم من أن الحاج في خطر، خاصة وأن السفر للحج كان قديماً شاقاً ومحفوفًا بالمخاطر ويستغرق شهوراً، على حد تعبير سكان في مدينة صنعاء القديمة، ويوضع على المدرهة شال أو عمامة للحاج الذكر، أو قماش للمرأة إذا ذهبت للحج، وتسمى المدرهة باسمه، والنص الشعري الخاص بالمدرهة يغلب على كلماته الشجن وطابع الحزن، وتُغنى بأبيات عفوية وبطريقة خاصة ومؤثرة. وتستمر بعد عودة الحاج من مكة لشهرين تقريباً، يجتمع خلالهما الجيران والأهل والأقارب والأصدقاء يتدرهون وينشدون.

وفي السنوات الأخيرة تراجع غالبية السكان عن هذه العادة، إلا أن جهودًا رسمية ومجتمعية وفردية خجولة تحاول إحياءها والحفاظ عليها.

حِجُّ الشناقيط

متعة التواصل ومشقة السفر

بقلم: الزبير مهداد
المملكة المغربية

أداء فريضة الحج كان من أهم الأسباب التي دفعت أهل الشمال الإفريقي إلى الرحلة نحو الديار المقدسة، متحملين كل الصعاب، عبر المسالك الوعرة. وكان من عادتهم الذهاب في جماعات ضمن ركب ينطلق من حواضر البلاد، فمنهم من كان يتجه جهة الشمال فيمر عبر المغرب، والجزائر، ثم تونس، فليبيا، فمصر؛ ومنهم من كان يتجه جنوبًا فيمر عبر الدول التي تقتسم منطقة الساحل.

وقد خلف كثير من العلماء كتبا دونوا فيها يوميات رحلاتهم، ومن لقوا فيها من العلماء والطلبة، وما سلكوه من سبل وعانوه خلالها بسبب مشاق السفر وأهوال الطريق، واستبداد النظم الاستعمارية في ذلك الوقت. وكذا النقاشات العلمية والحوارات والإجازات التي حازوها خلال الرحلة، والكتب التي قرؤوها أو أملوها. هذه المصنفات، تقف اليوم شاهدة على تاريخ غنيٍّ لهذه الأمة، وتحفظ ذاكرتها الثقافية.

وتعد رحلات أهالي شنقيط متميزة لمسلكها، واختراقها بلاد إفريقيا من غربها إلى شرقها، ما يجعل وقائعها طريفة، كما أن القضايا الثقافية والفكرية التي يثيرها العلماء الحجاج تكشف عن ثقافة الأهالي الدينية والعربية المتينة.

فشنقيط، المدينة العتيقة، التي أطلق اسمها على البلاد الموريتانية، احتلت مكانة بارزة في

تاريخ البلاد الثقافي والديني على وجه الخصوص، واضطلعت بأدوار سياسية واقتصادية وعلمية كبيرة، بوأتها المكانة المهمة. والشناقطة، مالكيون امتزجت فيهم العناصر العربية والإفريقية والأمازيغية، ثقافتهم عربية أصيلة، وتكوينهم العلمي الشرعي متين، وذلك ما أهلهم للاندماج في الحياة الثقافية والعلمية في المشرق العربي، والاضطلاع فيه بأدوار مهمة.

ومحمد الأمين الشنقيطي أحد أعلام شنقيط الذي قام برحلة إلى بيت الله الحرام، بدأها يوم السابع من جمادى الآخرة من سنة ١٣٦٧، والتقى خلالها بكثير من أهل العلم، وشاركهم وطارحهم في كثير من المسائل العلمية واللغوية والمنطقية والأدبية. وتكتسب هذه الرحلة طرافتها بجمعها بين الرحلة التقليدية والرحلة العصرية، باستعمال الإبل ووسائل النقل الحديثة.

حياة الشنقيطي

محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني (١٩٠٥-١٩٧٤)، وُلد عام ١٣٢٥هـ في قرية (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من شنقيط. ولقب "الجكني" يحيل على قبيلة "تاجكانت" التي ينحدر منها. نشأ يتيم الأب، فتربى في بيت أخواله، وهو بيت علم وأدب.

حفظ القرآن في سن العاشرة على أحد أخواله، وتعلم رسم المصحف العثماني على ابن خاله، وقرأ عليه التجويد على قراءة نافع برواية ورش، وقرأ المختصرات من فقه مالك، وكسائر الشنقيطيين، حفظ المختصرات والمنظومات والأراجيز المعتمدة آنذاك لتعلم الأدب، ومبادئ النحو، وأنساب العرب وأيامهم، والسيرة النبوية، والمنطق والكلام والتفسير وغيرها، تلقى كل ذلك على أخواله وزوجاتهم وأبنائهم، وارتحل لمواصلة التعلم على شيوخ قبيلته، فعمق تكوينه، وأثرى معارفه بعلوم كثيرة، وحفظ آلاف الأبيات الشعرية، وأكثر أحاديث الصحيحين، والألفيات والمنظومات في مختلف العلوم، وكثيرًا من المتون الفقهية شعرا ونثرا. ثم تولى في بلاده التدريس والفتيا والقضاء، وانتشر صيته وعلا قدره وصار علمًا من الأعلام.

في عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) عقد النية على أداء فريضة الحج، ثم زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يرجع إلى بلاده، ولكن شاء الله تعالى للشيخ أن يستقر في المدينة المنورة، ويعقد فيها حلقاته العلمية ودروسه، ويشارك في فعاليات المؤسسات والمنظمات العلمية والدينية، وظل فيها حتى وفاته عام ١٩٧٤م.

خلف رحمه الله عددًا من المؤلفات في التفسير وعلوم القرآن، والفقه وأصوله، والمنطق واللغة، وما يزال الكثير من تراثه مخطوطا، بين أيدي تلاميذه وأصدقائه، وقد أصدر مجمع الفقه الإسلامي في جدة عددًا من مصنفاته ومحاضراته، بإشراف بكر بن عبد الله أبوزيد رحمه الله.

مسار الرحلة

بدأت الرحلة في السابع من شهر جمادى الآخرة ١٣٦٧ (١٩٤٧)، وحط عصا الترحال في العشر الأوائل من ذي الحجة من نفس العام، بعد ستة أشهر من السفر والتنقل عبر مدن سبع دول، وهي موريتانيا، مالي، النيجر، نيجريا، الكاميرون، تشاد ثم السودان، ومنها أبحر إلى جدة.

١. في موريتانيا

عند مغادرة المؤلف لبيته، رافقه بعض تلاميذه وأهله إلى قرية (كيفا) في الجنوب، حيث ودعوه، وكانت الرحلة سهلة موفقة، ومن (كيفا) شد الرحال نحو

(تامكشط)، ارتحل إليها عشية، فمرت القافلة في الطريق بأم البوادي أم الخز، ونزلوا عند حي من قبيلة الأقيال، استقبلهم أهلها، وأكرموهم، ثم واصلت القافلة السير نحو (تامكشط) فبلغتها عند صلاة المغرب، فوجدوا أيضا ترحابا واستقبالا طيبًا ولقوا إكرامًا من أهلها وعلمائها وأعيانها، ثم تابعت القافلة السير نحو (عيون العتروس)، فوصلتها بعد ليال قلائل، ومنها شدوا الرحال نحو (تمبدرة)، فبلغوها بعد أيام قلائل أيضًا، فغادروها في أخريات رجب متوجهين إلى (النعمة) التي وصلوها أيضا بعد أيام قلائل، وارتحلوا منها آخر النهار من العشر الأول من شعبان، وفي هذه المدينة، قرروا أن يبيعوا إبلهم، ويستبدلوا بها سيارات ليواصلوا الرحلة على متنها. وكانت قرية (النوارى) هي آخر نقطة موريتانية يحلون بها، في طريقهم نحو (باماكو)، وبين المدينتين "فياف واسعة تتخللها قرى صغار من السوادين".

٢. في مالي

استغرقت الرحلة إلى (باماكو) ثلاثة أيام، واصلوا السير نحو (سكتو) التي قضوا فيها ليلة، ثم (قرية صن) وباتوا فيها ليلة أيضا، ثم (مبتي) التي بلغوها بعد مرورهم بعدة قرى صغار مساكنها العرش والأخصاص، ثم توجهوا نحو (دوينصة) ومكثوا فيها ليلة واحدة، ثم مدينة (همبري) فكان مقيلهم فيها، ثم قصدوا مدينة (فاوى) وقت الضحى، وفيها التقوا تجارًا شنقيطيين مقيمين بفاوى.

٣. في النيجر

غادر الوفد (فاوى) وواصل السير نحو مدينة (نيامي) عاصمة دولة (النيجر)، فبلغوها بعد يومين، ثم تابعوا الرحلة نحو مدينة (مرادي) فوصلوها في العشر الأوائل من رمضان، بعد مرورهم بقرية (مداوا)، في (مرادي) أضافهم أحد أبناء عمومة المؤلف، فأقام عنده خمسة أيام، ومنها بعث حوالة مالية نحو (فورلامي)، استعدادا لزيارتها.

من (مرادي)، واصلوا السير، نحو وجهتهم الجديدة، فبلغوا الحدود الفاصلة بين دولتي النيجر الفرنسية، ونيجيريا الإنجليزية، حيث تم التأشير على جوازات سفرهم لدخول (نيجيريا).

٤. في نيجيريا

باتوا ليلتهم الأولى في (كتنة)، وفي الغد توجهوا نحو (كانو)، ومنها سافروا إلى قرية (جص) ممتطين القطار، وفي (مادقري) قضوا ليلتين، ومنها انطلقوا نحو (كانبارو)، وكانت الرحلة شاقة، لقوا فيها عناءً بسبب اضطراب الأحوال الجوية، وأعطاب السيارة.

٥. في الكاميرون

الطريق إلى تشاد، تمر عبر (كسرى) وهي كاميرونية حاليا، تقع في الشريط الفاصل بين نيجيريا والتشاد.

٦. في التشاد

حلوا بمدينة (فورلامي)، بعد رحلة شاقة، تعرضت السيارة لعدة أعطاب، وفاقم حرس الحدود آلامهم بإجراءات تفتيش أمتعتهم، وسحبوا جوازاتهم، وظلت عندهم إلى اليوم الموالي؛ وبعد الحلول بالمدينة، استرجعوا أموالهم من مركز البريد، ثم توجهوا إلى قرية (آتيفا)، ومنها نحو قرية (آتين) في طريق غير معبد، وواصلوا السير متوجهين نحو السودان، مرورًا ببعض مدن وقرى تشادية وهي (أم الحجر) و(أبيشي)، ثم (آدرة)، وقطعوا المسافة بين (فورلامي) و(أبيشي) في ثلاثة عشر يوما، عانوا خلالها آلام الحمى ومشقة الطريق.

٧. في السودان

كانت (الجنينة) أول مدينة سودانية يحلون بها، وصلوها في شوال، ومكثوا فيها بضعة أيام، أضافهم بعض أهلها، فتسامروا مع مثقفيها وعلمائها، وحظوا بترحاب وعناية وإكرام، ومنها قصدوا مدينة (الفاشر)، ثم (كبكابيه) التي وجدوا فيها السمن وفيرًا ورخيصًا، ثم واصلوا السير نحو مدينة (أم كدادة)، ومنها إلى مدينة (النهود)، ثم قرية (الأبيض)، منها امتطوا فيها القطار ليحملهم إلى الخرطوم. وفيها زار الشنقيطي معهد أم درمان العلمي. الذي وجده "حافلا بالعلماء والطلبة الأذكياء، تدرس فيه فنون كثيرة، منها الأصول، والبلاغة، والكلام، والمنطق، وغير ذلك".

وبعد قضاء بضعة أيام في (أم درمان)، توجهوا نحو ميناء (سواكن) على البحر الأحمر في العشر الأواسط من ذي القعدة، فأخذوا الجوازات والتذاكر للتوجه إلى جدة، وكان المركز مكتظا بالحجاج الراغبين في السفر إلى جدة.

الصعوبات

استعمل الشيخ أثناء سفره البري عدة مواصلات من البعير والسيارات والقطارات وانتهت به الرحلة على سفينة بحرية نقلته إلى جدة. ولقي فيها عدة مشاق، نلخصها في الفقرات التالية:

صعوبة المسالك: تكبد المسافرون، أثناء تنقلهم بالسيارة مشقة كبيرة بسبب وعورة المسالك الطرقية. فبعض المراحل اقتضت اختراق رمال "لينة جدا" يصعب على السيارة الحركة فيها، فخلال المرور عبر (بحر الغزال) في تشاد "باتت السيارة طول الرحلة، كلما خرجت من ورطة حبستها أخرى، لأن الطريق هناك رمال دهسة لينة جدا، وبتنا الليل كله نمشي على أقدامنا".

كما أن تساقط المطر في (تشاد) زاد من تفاقم الوضع، فالطرق الموحلة لا تلائم السيارات، لأن الوحل يعوق حركة عجلاتها: "سافرنا وقت الضحى من (آتيه) في السيارات، فوقفت السيارات في طريق كثيرة الطين والماء، فصار يجتمع على كل واحدة من السيارات، قريب من مائة رجل من الراكبين، يجرونها بالحبال من وحل الطين، وكلما نزعوها من ورطة ارتطمت في أخرى، فمكثنا في تلك الحالة في مشقة شديدة، من تتابع المطر والبعوض، وكثرة الوحل من الطين والماء أسبوعا".

الأعطاب التقنية: وزاد من تعقيد صعوبة السفر وإطالة أمده، أن السيارات كثيرًا ما كانت تتعرض للأعطاب التي كانت تتكرر كثيرا في المرحلة الواحدة، ما كان يثقل كاهلهم بنفقات زائدة.

المرض والحمى: عدم القدرة على التعاطي مع أقاليم مناخية مختلفة ومتباينة جذريا مع المناخ الصحراوي الذي صدر عنه الشناقطة وترعرعوا فيه، لذلك عانوا كثيرا بسبب رطوبة الجو في التشاد، وكثرة البعوض.

التعقيدات الإدارية الحدودية: كما سجل الشيخ ما عاناه أحيانا أثناء سفره من معاملة الفرنسيين الذين كانوا يحتلون غالب البلاد الإفريقية، وخاصة عند مروره بحدود الدول بين تشاد والسودان. "فأتعبنا أهل مركزه بتفتيش المتاع، وأخذوا منا جوازات السفر وباتت عندهم".

الدعم

إن روح الأخوة الإسلامية أسهمت بشكل قوي

في تخفيف العناء، والتسلية عنهم، وتشجيعهم على مواصلة الرحلة الشاقة، فطيلة الرحلة كان ومرافقوه، مغمورين بدفء الأخوة الإسلامية، فكانوا يلقون الترحيب حيثما حلوا، واللقاءات الودية، الجلسات العلمية والنقاشات، والضيافة الكريمة والهدايا القيمة، أسهمت بشكل واضح في إيناسه من وحشة السفر، والتسلية عنه، ما كان يشكل دعمًا نفسيًا وماديًا لمواصلة الرحلة المباركة.

فالمشاق، لم تثبط همته، ولم تفل عزيمته، فقد واصل الرحلة حامدًا شاكرًا، تواقًا للوصول إلى بيت الله العتيق، الذي يهون من أجله كل شيء.

الأهمية التواصلية لرحلة الحج

هذه الرحلة تمثل مظهراً من مظاهر التواصل الحضاري في أحضان الإسلام، ولقد أراد الشيخ أن تكون رحلته إلى الحج عن طريق البرِّ، رافضًا عرضًا تلقاه للسفر بالطائرة، رغبة في لقاء العلماء والتعرُّف على معالم الديار الإسلامية التي تقتضيها الرحلة الطويلة أن يتخذها ممرًّا.

فالرحلة كانت زاخرة بجميع أنواع الدعوة من دروس ومحاضرات، ومناظرات علمية وأدبية، وأسئلة فقهية تنم عن مهارته في إيصال العلم الشرعي. كما تعرّف على أناس كثيرين من مختلف الدول التي مرَّ من خلالها، فطغى البعد العلمي على ما سواه في كتاب رحلته.

ففي موريتانيا ومالي والسودان، جمعته مجالس علمية، تداول فيها عدة قضايا، بلغ عددها حوالي سبعين قضية، حصة الأسد فيها لفقه المعاملات، والمناسك والأحوال الشخصية، ثم قضايا علوم القرآن والتفسير، فقضايا الأصول، واللغة، والأدب، وكذا المنطق والكلام، وعلوم الحديث، ما ينم عن عمق تكوين المشاركين في الحلقات، وتمكنهم من الثقافة الشرعية الإسلامية واللغوية والأدبية العربية. وإجابات الشنقيطي كانت تروم نشر الوعي والفهم الصحيح للإسلام، وتعليم الناس أمور دينهم ولغتهم العربية.

إن رحلات الحج كانت عاملًا مهمًا من عوامل انتشار العربية، التي أكسبها الدين الإسلامي مكانة هامة، باعتبارها ضرورية لفهم القرآن الكريم وقراءته والتعبد به، وأداء العبادات، وقراءة الأحاديث النبوية وفهمها وروايتها، وفهم التشريع، واستيعاب مدونات الأصول والفروع وغيرها من العلوم الحاملة للقيم والمعرفة والآداب الإسلامية. فعلى الرغم من تعدد واختلاف لغات وحضارات الدول المستعمرة، ومعاول الهدم والتخريب التي أطلقوها في حضارة وثقافة هذه القارة، فقد ظلت إفريقيا متمسكة باللغة العربية والدين الإسلامي.

إن حرص الشنقيطي على السفر برا، دليل على الأهمية التي يوليها لمعرفة الرجال، وملاقاتهم، وحوارهم، وهذا الحرص على التواصل والتبادل الثقافي للشنقيطي وسائر الحجاج هو الذي أسهم في بناء جسور التواصل بين البلدان الإسلامية، وتقوية التبادل الثقافي بين طرفي الصحراء، وتحقيق الوحدة الفكرية وترسيخ الثقافة المشتركة ما يسر اندماج إفريقيا الغربية بالعالم الإسلامي الكبير.

وعلى الرغم من التضييق المنهج الذي مارسه الاستعمار على السكان، وحيلولته دون تواصلهم، ومنعه تجمعاتهم، فإن رحلات الحج كانت خارج كل سيطرة، باعتبارها رحلات نسكية تعبدية، فكانت فرصة للنخب العلمية والسياسية للتواصل مع الطبقات الشعبية، والإنصات إليها.

الحج

صور ومواقف وعبر

د. محمد محمود العطار
أستاذ مساعد - جامعة الباحة

مـــا إن يذكر بيت الله الحرام في بلد الله الحرام حتى ترق الأفئدة، وتهفو القلوب، وتشـــتاق النفوس، وتحن الأرواح إجلالاً وشوقاً وحباً وإعظاماً لله رب العالمين.

قـــال تعالى: "إِنَ أَوَلَ بَيتٍ وُضعَ للنَـــاسِ لَلَذِي بِبَكَةَ مُبَارَكاً وَهُـــدًى لِلعَالَمِـــينَ * فِيهِ آيَـــات بِينَات مقَامُ إِبَراهِيـــمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنـــاً وَلِلّه عَلَى النَاسِ حِجُ البَيتِ مَنِ استَطَاعَ إِلَيهِ سَـــبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَ اللّه غَنِى عَنِ العالَمِينَ" (آل عمران:٩٦-٩٧).

ولقـــد جعل الله ســـبحانه وتعالى لحـــج بيته الحرام ميقاتاً معلوماً من الســـنة يتأدى فيـــه، فكان بذلك

موسماً مشهوداً تلتقي فيه وفود القادمين إلى البيت الحرام ببطن الوادي من أم القرى، من مختلف الأقطار والأمصار، وفي لقائهم هذا يحصل خير كثير يرجونه، ومنافع يشهدونها، قال تعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج:٢٧-٢٨).

والحج سياحة إيمانية، وفي هذا اللقاء البهيج الجامع للحجيج المفعم بالإيمان، تتجلى كثير من المعاني الإيمانية والاجتماعية.

إن الحج أكبر مظهر للاجتماع الإنساني على الأرض، وفي أفيائه يجد المسلمون أعظم الفرص للقاء، وتداول الآراء، وتبادل التجارب، والحوار المثمر المعمق في قضايا المسلمين ومستجداتهم.

مفهوم الحج:

الحج لغة: القصد، والحج اصطلاحاً: القصد في أشهر معلومات إلى البيت الحرام للنسك والعبادة، استجابة لأمر الله تعالى، وابتغاء مرضاته.

والحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة يشترط لوجوبه شروط هي الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والاستطاعة، والاستطاعة هنا تكون مالاً وبدناً، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧).

من فوائد الحج:

للحج منافع عديدة للمسلمين حيث تتوسع لديهم المدارك ويزداد رصيدهم من التعارف، وتتجدد لديهم مشاعر الإخاء والترابط والتآلف والتعارف والانتماء الوجداني إلى المجتمع الإسلامي الكبير، بالإضافة إلى تمسك الحاج بدينه والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، ومن أهم فوائد الحج:

أنه سبب مرضاة الله.
أنه سبب لمغفرة الذنوب.
أنه سبب للفوز بالجنة.
أنه سبب لتعظيم شعائر الله.
أنه سبب للتقوى وتزكية النفس.

أنه سبب لتنمية الشعور لدى الحاج بالعزة والفخر للانتماء إلى أمة الإسلام.

أنه سبب لتربية المسلم على تحمل المشاق والسعي لمرضاة الله.

إن قيم الحج إذا تشربتها النفوس وأحسنت تمثلها كانت لها طاقة تغذي جهود أصحابها، أفراداً كانوا أو جماعات، إذ تتضافر في بناء كيان الأمة المسلمة بالعلم والعمل.

فمن حافظ على آداب الحج فترك اللغو والحرام، فقد تطهر من ذنوبه، وغفر الله له خطاياه فيعود نقياً تقياً مغفوراً له بإذن الله.

شعار الحج:

لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك .. يهتف الحجيج من أول إحرامهم بهذه الكلمات العظيمة الرائعة الطيبة المثمرة في نفوسهم المتعلقة بالإيمان، معلنين بذلك الطاعة المطلقة لله رب العالمين.

إن هذه التلبية هي ما نحتاجه اليوم لتستقيم أمورنا وتستقيم حياتنا، فالخلل الكبير الذي يصيب الأمم ينشأ يوم تنفصل الأقوال عن الأفعال، إننا نريد لبيك واقعاً عملياً في حياة المسلمين بحيث ننقي أنفسنا من الأحقاد والضغائن وموجبات الشقاق، وأن يشيع خلق العفو والتسامح بين الناس لله وحده قبل أي شيء آخر.

وتهفو نفس المسلم، وتتطلع لأداء هذه الفريضة متجشماً وراضياً كل مشقة في سبيل أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة.

بعد لبيك:

يتحول العبد من المعصية إلى الطاعة، ومن البعد والجفاء إلى الخضوع لله وشرف التذليل له، ولا تعنى لبيك الحج فقط ولكن لبيك يا رب في كل ما أمرت، ولبيك في ترك ما نهيت، لبيك وحدك لا شريك لك، فالمؤمن الذي يرفع نداء لبيك عليه أن يترجم هذا القول بالعمل.

الحج.. صور ومواقف:

تزخر ذاكرة الحج على مر التاريخ الإسلامي بالعديد من المواقف والأحداث المهمة، كما تضم كثيراً من الأدوات والمعدات التي كان يستخدمها الحاج في الماضي، وكان من الضرورة أن تواكب روح العصر، وأن تتطور مع مرور الزمن وتطور الإنسان وتقدم سبل العيش والحياة، لتصبح إرثاً غالياً وجزءاً مهماً من ماضي الجدود والآباء.

ويروي الأجداد والآباء قصص وحكايات قد تبدو غريبة لجيل الأبناء، وذلك حينما يسترجعون ذكريات رحلاتهم للحج في عقود ماضية، وكيف كانت هذه الرحلة الإيمانية العظيمة بالغة المشقة ومحفوفة بالكثير من الصعاب والمخاطر.

فذكريات الماضي محفوظة في محفظة الزمن ومسجلة في أرشيف الذاكرة، استحضارها مرهون بالقدرة على إمكانية استعادة صورتها واستجلاب تفاصيلها بعد أن تلاشى وهجها ومضى وقت معايشتها حتى غارت معالمها وعفا عليها الزمن وتعاقب الأجيال.

ففي الماضي كان يتعرض الحجيج لانتشار الأوبئة والأمراض، والتلوث البيئي نظراً لضخامة كميات عوادم السيارات، وحوادث الطرق، بالإضافة إلى حالات الوفاة الناتجة عن الإجهاد أو التعرض لضربات الشمس أثناء أداء مناسك الحج.

وفي الوقت الحالي هناك صورة رائعة لحجاج بيت الله الحرام وهم يؤدون مناسكهم بكل سهولة ويسر وأمان، وتتجدد الصورة في كل عام من خلال الجهد المبذول لخدمة الحجيج من خلال الإمكانات الضخمة التي توفرها حكومة خادم الحرمين الشريفين، رعاها الله، لخدمة ضيوف الرحمن، حيث يقف العالم إعجاباً أمام جهود المملكة العربية السعودية في رعاية ملايين الحجاج كل عام لأداء مناسك الحج، والحفاظ على أمنهم وسلامتهم.

ولعل مشاريع الخيام في مشعر منى ومشروع تصريف الأمطار والسيول ومشروع منشأة الجمرات وقطار المشاعر وصولاً إلى تأمين أحدث الآليات والمعدات للجهات المعنية بسلامة وأمن الحجاج لأداء مهامها على الوجه الأمثل والتوسعة الكبرى للمسجد الحرام وغيرها من المشاريع بالمشاعر المقدسة خير شاهد على ذلك.

ففي هذا العصر الزاهر وبفضل الله وتوفيقه تبذل حكومة المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز يحفظه الله، جهوداً كبيرة لجعل رحلة الحاج لأداء الحج مريحة وميسرة، فلم تقتصر هذه الجهود على زمن محدد، بل امتدت منذ عهد تأسيس المملكة العربية السعودية على يد المغفور له بإذن الله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، حتى يومنا هذا بقيادة قائد المسيرة المباركة الملك سلمان بن عبدالعزيز، وبجانبه ومن خلفه كل المخلصين، يتقدمهم سمو ولي العهد الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز، حفظه الله، فالجميع لم يدخر جهداً أو مالاً في رعاية ضيوف الرحمن وذلك في

سبيل تيسير مناسك الحج.

رحلة الحج ..المناسك ودلالتها التربوية:

الحق أن لكل عمل من أعمال مناسك الحج دلالة تربوية تنطوي عليه، ومعنى يرمز إليه، يجب أن يلتفت إليه المسلم، وهو يؤدي صورة هذه الأعمال. فما الإحرام في حقيقته وهو أول مناسك الحج إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل شيء ما سوى الله، وعلى التفكير في جلاله. وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال. وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذي ترى نعمه، ولا تدرك ذاته، وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان، والوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين. وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزعات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

الدروس التربوية للحج:

حملت شعيرة الحج دروساً وعبراً إيمانية عظيمة من شأنها انتشال البدن من أوحال المادة والارتقاء به في رحلة روحية إلى الله في الأراضي المقدسة.. وفيها أيضاً التسليم الخالص لقضاء الله والامتثال المطلق لأوامره واجتناب نواهيه، وليس أدل على ذلك من تسليم خليل الله إبراهيم عليه السلام بذبح فلذة كبده، رافعاً شعار لبيك يا رب.

وللحج في الإسلام أهمية كبرى وفضل عظيم، وقد وردت آثار عديدة دالة على ذلك، منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله؟ قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور "وقال صلى الله عليه وسلم "من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه" (رواه البخاري ومسلم)، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له

جزاء إلا الجنة" (رواه البخاري ومسلم).

وفي فضل الحجاج والعُمار روى أبوهريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال "الحجاج والعمّار، وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم".

وكل ما يقوم به المسلم من عبادات، هي سلوكيات حميدة مفيدة تنعكس آثارها الإيجابية على حياته، وحياة أفراد المجتمع من حوله، وتتجلى أهم آثار الحج التربوية في النقاط التالية:

يبرز الحج وحدة المسلمين وتماسكهم، وأنهم يسعون إلى هدف واحد، ومصير مشترك، هو مرضاة الله تعالى والفوز بجنته.

يطهر الحج البدن ظاهراً وباطناً، مادياً وروحياً؛ فالحج طهارة شاملة للروح والبدن والمال، إذ يرجع منه الحاج طاهراً معافى كيوم ولدته أمه.

يربى المسلم على كظم غيظه وضبط انفعالاته عند احتكاكه بالحجاج الآخرين في أداء المناسك وسط الزحام؛ حيث يمنع الرفث والفسوق والجدال في الحج.

يوسع الحج فكر المسلم، وينمى ثقافته، ويزيد من خبراته، من خلال احتكاكه بشخصيات إسلامية متعددة، ذات لغات مختلفة، وثقافات متنوعة، وتقاليد وعادات متباينة، فيكتسب منهم ويتأثر بهم.

يربي الحج المسلم على العدل والمساواة؛ إذ يرى جميع الحجاج يلبسون زياً أبيض واحداً، ويؤدون مناسك واحدة، ويقفون على صعيد واحد، ويلبون بصوت واحد، ويرجون رحمة رب واحد.

والحق أن لكل عمل من أعمال مناسك الحج دلالة تربوية تنطوي عليه، ومعنى يرمز إليه، يجب أن يلتفت إليه المسلم، وهو يؤدي صورة هذه الأعمال. فما الإحرام في حقيقته وهو أول مناسك الحج إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل شيء ما سوى الله، وعلى التفكير في جلاله. وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال. وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذي ترى نعمه، ولا تدرك ذاته. وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان، والوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين. وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزعات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

إن الحج أحد أعظم مظاهر القوة في ديننا العظيم، ولو أن الأمة، فهمت مقاصد الحج وغاياته، ولو أنها أدته كما يجب أن يؤدى، ولو أنها عاشته وعايشته ركناً ركناً ونسكاً نسكاً لتغير وجهها، ولغيرت هي وجه الأرض والتاريخ.

إن للحج تأثيراً عظيماً في تزكية النفوس وإصلاح القلوب، لما فيه من معاني العبودية، ومظاهرها التي تجلت في كل أعماله ومناسكه، فأثمرت في واقع السلف قلوباً زكية تقية، وأبداناً طاهرة نقية.

فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهو من أفضل الأعمال، والحج كالجهاد في أجره، والحاج كالمجاهد في المنزلة، وإن للحاج كرامة عند الله بها يستجاب دعاؤه ويغفر ذنبه وذنب من يريد له ذلك ما استغفر له بإذن الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه" (رواه البخاري ومسلم).

الحج
في منظور المقدسي

بقلم: د. إبراهيم نويري ـ الجزائر

في هذه المساحة توضيح لمنظور الإمام المقدسي رحمه الله للحج، انطلاقًا من كتابه "مختصر منهاج القاصدين"؛ والإمام المقدسي هو نجم الدين أبوالعباس أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٦٨٩هـ)؛ وهو من أسرة علمية عريقة قدّمت الكثير للمكتبة الإسلامية والعلوم الشرعية.

في البدء نجد الإمام المقدسي يضع جملةً من المحدّدات والضوابط والإرشادات العامة التي ينبغي لكلّ مسلم يسعى لأداء هذا الركن الجليل مراعاتها والعمل بها، انطلاقاً من عدّة قواعد وأحكام شرعية وفقهية ثابتة ومقرّرة في الكتاب والسنة، فيقول: "ينبغي لمن أراد الحجّ أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكلّ مَن تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع. وأن يستصحب

من المال الحـــلال ما يكفيه بذهابه ورجوعه من غير تقتير، ويستصحب ما يُصلحه كالسواك والمشط والمرآة والمكحلة... وينبغـــي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محبـــاً للخير معيناً عليه، إنْ نســـيَ ذكّره، وإنْ ذكر أعانه، وإنْ ضـــاق صدره صبّره. وينبغي للمســـافر تطييب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق. فإنّ السفر يُخرج خفايا الباطن، ومَنْ كان في الســـفر الذي هو مظنّة الضّجر حَسَنَ الخُلق، كان في الحضر أحْسَـــنَ خُلقاً. وقد قيـــل: "إذا أَثْنَى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر، فلا تشكّوا في صلاحه" (ص ٤٦).

ينصح الإمام المقدسي المســـلم الحاج أن يتجرّد لطاعـــة الله أثنـــاء رحلـــة الحج مـــن بدئها إلى منتهاها، إذْ مـــن الأفضل بنظره أن يكون المقبل على الحـــج "خالياً من تجارة تشـــغل قلبه وتفرّق همّـــه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، غير مستكثر من الزينة لقول النبي صلى الله عليه وســـلم: "إنّ الله عزّ وجلّ يباهي بالحاج الملائكة فيقـــول: "انظروا عبـــادي، أتوني شُـــعثاً غُبراً من كلّ فجّ عميق، أُشـــهدكم أني غفرتُ لهم" (ص٤٧).

ولعلّ ما يلفت نظر القارئ لمنظور الإمام المقدسي للحج، إيمانه برمزية مناسك هذا الركن الجليل، فهي تنطوي على دروس وعبر ودلالات كثيرة يســـتطيع العقـــل أن يدركهـــا بإعمـــال مقدار مـــن الفكر والتأمل الحصيف، فيقول: "واعلم أن في كلّ واحد مـــن أفعال الحجّ تذكرة للمتذكّـــر، وعبرة للمعتبر، فمن ذلك: أن يتذكّر بتحصيـــل الزاد زاد الآخرة من الأعمال، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء فلا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفســـد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيّراً، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكّر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من أهوال، ومن ذلك أن يتذكّر وقت إحرامه وتجرّده من ثيابه ولباسه لباس الإحرام، لبسه كفنه وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي أهل الدنيا، وإذا لبّى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قـــال: "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ" (الحج: ٢٧)... وليرجَ القبول وليخشَ عدم الإجابة" (ص٤٨).

وما أروع ما ذهب إليه الإمام المقدســـي من ضرورة ثقـــة الحاج في عفو الله وتغليبـــه لمنزع الرجاء في قبول العمل من منطلق أخلاق حســـن الظن بالله تعالى، خاصة في مواضـــع الطاعة والإقبال على أداء مـــا أمر به جلّ شـــأنه، وذلك لمـــا رواه البخاري ومسلم في الحديث القدسي الذي يقول الله فيه: "أنا عند ظن عبدي بي"... واســـتناداً لهذا المنظور فإنّ الحاج إذا وصل إلى الحرم "ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القُرب، غيـــر أنه ينبغي أن يكـــون الرجاء لديـــه غالباً، لأنّ الكرم عميم، وحقّ الزائر مرعي، وذمام المســـتجير لا يضيع. ومن ذلك: إذا رأى البيت الحرام اســـتحضر عظمته في قلبه، وشـــكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشـــعر عظمة الطواف به، ويعتقد عند اســـتلام الحجر الأســـود أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعـــة، وليتذكّـــر بالتعلّق بأســـتار الكعبة لُجأ المذنب إلى ســـيده، أما الوقـــوف بعرفة فهو يذكّر بمـــا نرى فيه مـــن ازدحام الخلق وارتفـــاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامـــة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن" (ص ٤٨).

بمثل هذه الكلمات الإيمانية الرائقة الصافية، تحدّث الإمام المقدســـي عن الحج وفضائلـــه وآدابه، وعن العِبر والحِكم التي ينبغي للمسلم، أن يستلهمها من أركانه وشعائره وسُننه وفضائله، وهو منظور قمـــين بالتقدير يمكـــن الإفادة منه والاســـتئناس بمرئياته وأفكاره.

والله الموفق إلى كلّ خير.

دارة الملك عبد العزيز

مساهمات مهمة في رعاية تاريخ الحرمين الشريفين

بقلم: محمد سعيد الغامدي
مدير إدارة الترجمة برابطة العالم الإسلامي

تقع دارة الملك عبدالعزيز بوسط مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، وتحتضن التاريخ الوطني السعودي وتاريخ الجزيرة العربية، وتساهم في مشاريع جمع وحفظ وأرشفة تاريخ المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتُعتبر الدارة أول مكتبة متخصصة ــ أول مركز وثائق رسمي سعودي يجمع ويعتني بمختلف المصادر التاريخية على ثرى البلاد والجزيرة العربية. أنشئت لتكون مرجعًا تاريخيًا عالميًا في كل ما يخص تاريخ المملكة وجغرافيتها وتاريخ الجزيرة العربية والعالم الإسلامي.

تأسست الدارة بموجب قرار ملكي في شعبان ١٣٩٢هـ الموافق لعام ١٩٧٢م، وبدأ نشاطها على المستوى الوطني بتشكيل مجلس إدارة الدارة برئاسة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز

ـ حينها كان أمير منطقة الرياض. والملك سلمان ـ حفظه الله ـ معروف عنه حبه للمعرفة وعشقه للقراءة وحرصه على استحضار التاريخ دائما؛ فكان قرار تكليفه برئاسة مجلس الدارة هو النقلة الكبرى لها فتحولت من مركز أو مكتبة محلية إلى مركز وطني إقليمي يجمع تاريخ الوطن والجزيرة العربية، فحققت حضورًا على المستوى الإقليمي والدولي وبين كبرى مراكز البحوث والمكتبات العالمية.

نركز في هذه المقالة على دور الدارة ومساهماتها في رعاية مشاريع حفظ تاريخ الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة وقاصديها وما تحقق وما يتم ويقدم من لقاءات وندوات ونشاطات لحفظ تاريخ هاتين المدينتين المقدستين وإبرازهما. الكل يعلم أن المملكة العربية السعودية دولة تأسست على الكتاب والسنة وعلى ثراها الوطني توجد الأماكن الإسلامية المقدسة، لذا وضعت المملكة نصب عينها خدمة قاصدي الحرمين الشريفين وتسهيل كل ما يضمن راحتهم وأداء شعائرهم بيسر وسهولة خلال الحج وشهر رمضان، بل وعلى امتداد العام. فمنذ أول يوم خاطب الملك المؤسس أبناء وطنه والحجاج من مكة المكرمة بين لهم ـ رحمه الله ـ أسس قيام دولته ونهجها المبنيين على ما في كتاب الله الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

رغم شح الموارد خلال خطوات توحيد البلاد وتوطيد دعائم الدولة وبناء هياكلها، أولى الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ خدمة الحرمين والوافدين إليها كل اهتمامه، فمنذ خطابه الشهير في مكة المكرمة عام ١٩٢٤م، انطلقت بالمدينتين المقدستين مشاريع التوسعات والتطوير، فكان من أبرز تلك المشاريع آنذاك تطوير المسجد الحرام وترخيمه ووضع السرادقات في صحن المسجد للوقاية من أشعة الشمس وتوسعة وتبليط المسعى عام ١٩٢٦م بهدف تحقيق سعي سهل ومريح، وأمر بإصلاح مظلة مقام إبراهيم عليه السلام وقبة زمزم وإنشاء سبيلين لماء زمزم، وأمر بعمل باب جديد للكعبة

المشرفة والعناية بشاذروانها؛ أيضا أمر عام ١٣٤٦هـ بإنشاء أول مصنع لكسوة الكعبة في مكة المكرمة، وبتطوير وتحديث مسالك العيون المائية مثل عين حنين وعين زبيدة وعين الزعفرانة وعين التنضباوي وغيرها، وأمر بتسهيل وصول مياه عين ثرة من وادي المضيق بشمال شرق مكة المكرمة، بالإضافة لحفر آبار جديدة، وإنشائه منظومة متكاملة من المرافق المائية.

ووجه الملك المؤسس ــ رحمه الله ــ بتأسيس مديرية الحج والحرمين الشريفين لتوفير كل سبل الراحة للحجاج والمعتمرين والزائرين. وأمر بإنشاء مدن الحج وشجع على إنشاء الفنادق وافتتح أول فندق في عهده في مكة المكرمة عام ١٣٥١هـ الموافق لعام ١٩٣٢م في احتفال رسمي كبير؛ بل إنه بعد ما رأى ندرة الفنادق في مكة أصدر قرارًا عام ١٩٤٧م بإعفاء من يريدون إنشاء فنادق لنزول الحجاج والمعتمرين من الرسوم الجمركية والإدارية ولوازم البناء كافة. وفي عام ١٩٥٣م تمت إضاءة شوارع مكة المكرمة بالكهرباء لأول مرة في التاريخ.

إن لمكة المكرمة والمدينة المنورة مكانة في قلب ووجدان الملك عبدالعزيز ــ رحمه الله ــ لا تضاهيها أي مكانة، فبذل جهده في تحقيق أمن الحرمين الشريفين وساكنيهما والوافدين إليهما والطرق المؤدية إليهما، مؤكدًا في الوقت نفسه تحقيق العدالة وتطبيق الشريعة في بلاد مهبط الوحي. بهذا النهج العظيم والإيمان المفعم بالإنسانية والخصال الحميدة التي تميز بها الملك عبدالعزيز أحبه كل من حوله، بل البعيد قبل القريب، فالمؤرخ النمساوي فون دايزل عبر عن إعجابه بالملك عبدالعزيز بقوله: "إن الميزات القيادية والإنسانية والأخلاقية التي تميز بها الملك عبدالعزيز مكنته من أن ينجح في تأليف قلوب مواطنيه ويكون دولة تفوق مساحتها كلاً من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا معاً" (من منشورات الدارة).

ووصف عباس محمود العقاد ابن سعود بأنه من "أولئك الذين يراهم المتفرّسون المتوسمون فلا

يحارون في أسباب زعامتهم ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا لماذا كان هؤلاء زعماء، لأن الإيمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة في أقوامهم أسهل كثيرًا من الشك في ذلك الاستحقاق" (منشورات الدارة). والمؤرخ الصيني البروفيسور يانغ يان هونغ قال عنه: "لقد كان الملك عبدالعزيز أحد العباقرة الذين قدموا لأمتهم وأوطانهم خدمات جليلة وبجهود جبارة لا تعرف الكلل أو الملل، وأثروا في تطور المجتمعات البشرية وتقدمها نحو الغاية المنشودة، وسجلوا مآثر عظيمة في السجل التاريخي المفعم بالأمجاد الخالدة". (منشورات الدارة).

وقد سار على نهج الملك عبدالعزيز ــ رحمه الله ــ أبناؤه الملوك، فكل ملك كان يسعى لتكون له إنجازات تسجل وتذكر في هذا الشأن، والتوسعات الكبرى تشهد على ذلك. وفي هذا العهد الزاهر عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز تضاعفت المشاريع والجهود وأخذ على عاتقه ــ حفظه الله ــ خدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما وجعلها همه الأول، فتوالت المشاريع الكبرى من توسعات وتهيئة لمشاعر الحج، حيث تم تجهيزها بكامل الخدمات وتشكيل مختلف اللجان العليا من أجل ذلك وخاصة لجنة الحج المركزية.

وهذا ما جعل الدارة تأخذ على عاتقها ومنذ إنشائها توثيق هذا التاريخ العظيم المستمر منذ بدء خطوات توحيد البلاد، فقامت بحفظ سجلات حول حياة وسيرة الملك المؤسس الحافلة بالجهود والبذل والعطاء والبناء والتطوير والتوسعات للحرمين الشريفين والمشاعر وكل ما يتم فيهما من إنجازات ومناسبات في هذا الشأن منذ بداية عهده، رحمه الله، حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز.

منذ إنشائها أصبحت دارة الملك عبدالعزيز مآلا للباحثين ومأوى للمصادر التاريخية، وأصبحت راعية لكثير من المناسبات والمراكز التاريخية والبحثية العلمية المتخصصة، وخاصة بعد نقلها عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م من مقرها السابق إلى مركز الملك

عبدالعزيز التاريخي في حي المربع بوسط الرياض.

ومعروف أن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز ــ حفظه الله ــ منذ ذلك الوقت يتابع كل صغيرة وكبيرة من أجل تمكين الدارة من أداء واجباتها وخدمة التاريخ الوطني وتاريخ الأماكن المقدسة، وكونه رئيس مجلس إدارتها يحرص على دعمها شخصيًا ومباشرة رغم مهامه الكبرى كملك للبلاد، حيث إنه يترأس من فترة لأخرى مجلس إدارة الدارة.

وعقد الملك المفدى من خلال الدارة لقاءات وندوات تاريخية عدة، أهمها ثلاث ندوات متخصصة في التاريخ الوطني، حيث كانت أولى محاضراته في جامعة أم القرى عام ١٤٢٩هـ تحت عنوان (ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز)، والمحاضرة الثانية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٣٢هـ تحت عنوان (الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية)، أما محاضرته الثالثة فكانت في جامعة الملك سعود ممثلة في "كرسي الملك سلمان بن عبدالعزيز للدراسات الحضارية والتاريخية" عام ١٤٣٣هـ تحت عنوان (الجوانب الإنسانية والاجتماعية في تاريخ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود).

أيضا يرعى الملك سلمان بن عبدالعزيز الحفل السنوي لتقديم الجائزة التي تحمل اسمه في مجال الدراسات والبحوث حول تاريخ الجزيرة العربية، وكذلك حفل تسليم جائزة الملك عبدالعزيز للكتاب.

وفي سؤال طرحناه على معالي الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز المكلف الدكتور فهد بن عبدالله السماري، حول دور الملك سلمان بن عبدالعزيز في تطوير الدارة وتسهيل كل المصاعب من أجل أداء ما أُنيط بها، قال:

"الدارة تحظى بكل الدعم والمؤازرة من قِبل خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان ـ حفظه الله ـ منذ إنشائها وعلى وجه الخصوص منذ أن تولى رئاسة مجلس إدارتها، حيث سلكت الدارة منحنى تصاعديًا نحو التألق والإبداع والتوسع والانتشار. لقد بث فيها ـ رعاه الله ـ روح الإنجاز النشط، فانعكس ذلك على شخصية الدارة بشكل شامل، فحتى هذا اليوم رغم مهامه الكبرى لم يتأخر ــ حفظه الله ـ عن اجتماع واحد لحرصه على دقائق العمل في الدارة وبذلك وضع بصمته الواضحة على إنجازاتها وأنشطتها، فمن توجيهاته ــ أيده الله ـ تكوين مجلس إدارة يكون أعضاؤه من المؤسسات التعليمية والثقافية ذات العلاقة، لتسهيل تبادل المعلومات. بفضل رعايته أصبحت الدارة يشار إليها بالبنان على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية كافة، وفي وقت قصير جدًا صارت موئل الباحثين والدارسين في مجال الدراسات التاريخية والإنسانية، ومقراً لأمهات المصادر العلمية، وغدت إنجازاتها ومشروعاتها مُلهمة لكثير من المؤسسات المشابهة".

وأضاف أن من مبادرات خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان في دعم الدارة معرفيًا إهداءه على سبيل المثال مخطوطة نادرة بعنوان "المقنع في الفقه" نسخت عام ١٢٢٠هـ فكانت نواة لما جرى جمعه وحفظه من المخطوطات الأصلية التي تجاوزت عدة آلاف؛ كما قدم ـ حفظه الله ـ وثيقة أصلية هي رسالة الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى سليمان باشا نُسخت عام ١٢٢٥هـ ليقدم بذلك مثالا لمالكي الوثائق والمخطوطات التاريخية وخاصة النادرة لإيداعها في الدارة.

أيضا من أشكال دعمه ـ حفظه الله ـ تبرعه من ماله الخاص بقيمة جائزة تشرف عليها الدارة تُمنح للباحثين والباحثات تحت اسم (جائزة الملك سلمان

بن عبدالعزيز لدراسات وبحوث تاريخ شبه الجزيرة العربية)، يضاف إلى ذلك (جائزة الملك عبدالعزيز للكتاب) للكتب المؤلفة والمحققة التي تتفق مع أغراض الدارة؛ وكذلك رعايته وحضوره الندوات التي نظمتها الدارة، حول الملوك السابقين رحمهم الله جميعا.

وفي سؤال آخر حول تطلعات وطموحات الدارة، أجاب معالي أمين عام الدارة الدكتور السماري بقوله "تعيش الدارة حاليا في ظل دعم مستمر من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع، حفظهما الله، فمع رئاسة خادم الحرمين الشريفين لمجلس إدارتها، وبتشرف الدارة بسمو ولي العهد الأمين نائبا لرئيس مجلس إدارتها، هيأ لها واقعًا مزدهرًا، يستشرف المستقبل ونرى بشائره في العديد من المشروعات والبرامج التي تسعى الدارة حاليًا إلى إنجازها؛ أيضا الدارة توجهت لشريحة الشباب لإدراكها بأهمية أن تكون هذه الشريحة شريكة في مشروعاتها، وأخذت على عاتقها تشجيع المواهب البحثية الشابة، وتقدم لهم الجوائز والمنح البحثية، وتدعم المؤلف الشاب، كما تقدم وبأسلوب شيق وعصري التاريخ بطرق مشوقة تجعل الشاب يستوعب ذلك بكل أريحية ورحابة صدر، وهناك على سبيل المثال مبادرة (أنتمي) التي تربط الشاب السعودي بتاريخ المملكة العربية السعودية والتاريخ العربي والإسلامي، من خلال مجموعة من البرامج والتطبيقات والفيديوهات والمنصات الإلكترونية".

(انتهى حديث الدكتور السماري).

في ما يخص موضوع حفظ تاريخ الحرمين الشريفين تم توقيع مذكرة تفاهم بين الدارة ورئاسة شؤون الحرمين الشريفين، وقعها معالي أمين عام الدارة

المكلف الدكتور فهد بن عبدالله السماري، ومعالي الرئيس العام لشؤون الحرمين الشريفين الدكتور عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس، وبذلك أصبحت للدارة مساهمة كبيرة في حفظ تاريخ وتراث مكة المكرمة والمدينة المنورة والاعتناء بهما، وذلك تأكيدًا لروح التعاون والتنسيق بين الجهات الحكومية لتحقيق المصلحة العامة التي أكدت عليها رؤية ٢٠٣٠ التي وضع أطرها ومسارها خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع نائب رئيس مجلس الدارة حفظهما الله.

هذا التعاون بين الدارة ورئاسة شؤون الحرمين الشريفين سيتيح للمؤرخين والباحثين والأكاديميين تحقيق مزيد من البحوث والدراسات، ويوسع أفقهم في مجال الدراسات التاريخية من خلال ما تتيحه الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي التي هي إحدى المؤسسات الوطنية العريقة".

وقد ثمَّن معالي الرئيس العام لرئاسة شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي جهود الدارة في حفظ العلم النافع وبذله، وخاصة حفظ المخطوطات التي ساهمت وبشكل كبير في حفظ ثوابت الأمة الإسلامية والشريعة السمحاء.

ومن الأمثلة على ما تقوم به الدارة؛ تتبعها لكثير من تاريخ الحرمين الشريفين الذي سجله ودونه بعض الأجانب وخاصة المستشرقين أو الرحالة، وهنا نذكر على سبيل المثال ما قامت به الدارة من إبراز تسجيل صوتي يعود تاريخه لأكثر من ١٣٣ عامًا وهو تسجيل صوتي لتلاوة القرآن الكريم من الحرم المكي الشريف، قام بتسجيله المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه Christiaan Snouck Hurgronje عام ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٥م، هذا التسجيل لا يزال محفوظًا في جامعة لايدن بهولندا حتى الآن. هذا المستشرق سبق أن زار مكة قبل هذا التاريخ بعدة سنوات وأعلن إسلامه واتخذ اسم عبدالغفار وبقي في مكة يدرس على أيدي علمائها وجمع كثيرًا من المعلومات والمشاهد ووثقها في كتاب سماه "صفحات من تاريخ مكة".

وبهدف الوجود عن قرب والتركيز بشكل أكبر أعطى خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز موافقته على إنشاء مركز تاريخ مكة المكرمة ومركز بحوث ودراسات المدينة المنورة التابعين لدارة الملك عبدالعزيز وأولاهما جل اهتمامه. فهذان المركزان أنشئا ليكونا رائدين في خدمة تاريخ المدينتين المقدستين، وتم تزويدهما بكل الإمكانات لتحقيق بيئة علمية ومعلوماتية، وليكونا مرجعًا في مختلف نواحي التاريخ المكي والمدني في مختلف العصور. وأيضا من أهدافهما إقامة المعارض المتخصصة حول الأماكن التاريخية في قبلة المسلمين وفي المدينة المنورة، وإنشاء بوابة تقنية للمعلومات في هذا الشأن.

ومنذ إنشائه أقام مركز تاريخ مكة المكرمة ندوات ولقاءات ونشاطات عدة، منها على سبيل المثال ندوة افتراضية حول "معالم مكة المكرمة التاريخية المرتبطة بالسيرة النبوية"، منها معالم صحيحة لا خلاف فيها لارتباطها بأحكام شرعية مثل الحرم ومزدلفة ومنى، وغار حراء، وغار ثور، وشعب بني هاشم الذي سكن فيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم. أما المعالم غير المثبتة والتي حولها خلاف فقد وُضعت جانبًا لتكون تحت الدراسة والتمحيص. وقد أتت هذه الندوة ضمن مشروع الأطلس التاريخي للسيرة النبوية الذي تنفذه دارة الملك عبدالعزيز ويقوم مركز تاريخ مكة المكرمة بالدور الأكبر والميداني منه.

وفي مدينة الرسول الكريم، أمر الملك المفدى بإنشاء "مجمع الملك عبدالعزيز للمكتبات الوقفية بالمدينة المنورة" ليضم كل المخطوطات التي ظهرت في المدينة منذ فجر الإسلام. أيضا يضم مجمع المكتبات هذا زيادة على مكتبة الملك عبدالعزيز المكتبات الوقفية ومتحفا للمقتنيات الإسلامية النادرة والصور.

وقد دشن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة المدينة المنورة بتاريخ ١٤٤٢/٦/٥هـ معرض المخطوطات النادرة بمكتبة المسجد النبوي، بحضور معالي الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي ومعالي أمين عام دارة الملك عبدالعزيز، وهو المعرض الذي يضم أشهر وأندر المخطوطات والكتب بمكتبة المسجد النبوي، والعديد من المقتنيات التاريخية، ويهدف إلى إبراز تاريخ تدوين القرآن الكريم، والسنة النبوية بالمدينة المنورة، وكذلك إبراز الوقف العلمي بالمسجد النبوي الشريف ومكتبته، وإبراز الجهود التاريخية للمملكة العربية السعودية في هذا الشأن.

وقد جرى التوقيع على عقد مذكرة تفاهم بين وكالة شؤون المسجد النبوي، ومركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، تضمنت إعداد الدراسات عن المسجد النبوي ومعالمه، وإقامة الندوات والمحاضرات وورش العمل المشتركة، وإعداد كُتيبات تثقيفية وإرشادية لزوار المسجد النبوي تتعلق بتاريخ المسجد ومعالمه، وغيرها من مجالات التعاون الأخرى. وبادرت الدارة في ٢٥ رمضان ١٤٤٢هـ بوضع مشروع توثيق تاريخ المصحف الشريف من التدوين إلى الطباعة، ومشروع تطوير دار القلم بالمدينة، ليكونا رائدين في الخط العربي، وكذلك وُقِّعت مذكرة مع مكتبات الأسر الوقفية بالمدينة.

لقد نجحت الدارة في المشاركة في حفظ وتوثيق المخطوطات التي في خزائن الحرم النبوي ومكتبات المدرسة الشهابية التي أنشئت في القرن الثامن الهجري وحظيت بدعم المقيمين في المدينة ومن بينهم أبو إسحاق الذي كان يُدرّس فيها بدايات القرن الثامن الهجري، وأبو عبدالله محمد الغرناطي المتواجد بالمدينة خلال الخمسينيات من القرن الثامن الهجري؛ بالإضافة للمعرض الدائم للمخطوطات النادرة في المسجد النبوي الذي أقيم ليكون منصة تعريفية لما قدمته وتقدمه الدارة في مجال تدوين تاريخ الحرمين الشريفين. هناك أيضا بين فترة وأخرى برامج موسمية، مثل البرنامج الرمضاني الذي أقامته الدارة في مقرها بمدينة الرياض حول ملتقى الوحيين الشريفين للخطاطين بهدف التعريف بالخطاطين في المملكة العربية السعودية من خلال ملتقى كتابة المصحف الشريف وضوابطه والسنة النبوية، وذلك ضمن مشاركتها الفاعلة في مناسبة عام الخط العربي تحت اسم "ملتقى خط الوحيين الشريفين"، حيث يقوم كل مشارك بكتابة جزءٍ من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية المباركة.

لا شك أن هذه المقالة لا تتسع للإحاطة بكل ما قامت به الدارة من خدمة للحرمين الشريفين، لكن نذكر هنا، في الختام، مركز الملك سلمان للترميم والمحافظة على المواد التاريخية؛ ومركز تاريخ البحر الأحمر وغرب المملكة، في مدينة جدة الذي أنشئ في مايو ٢٠١٣م، لما لهذا الجزء من المملكة من إرث تاريخي يغوص في أعماق الماضي البعيد. وقد انضمت الدارة لهيئة المخطوطات الإسلامية TIMA؛ وتم إنشاء الويكيبيديا الوطنية (ويكي دَوّن Wiki Doween) لإبراز تاريخ المملكة والحرمين الشريفين على مستوى العالم. وتمكنت الدارة من تحقيق إنجاز في مجال الرقمنة بما يفوق الثلاثمائة تيرابايت من المواد المختلفة. وللدارة شراكات مع كثير من المكتبات الرقمية العالمية مثل المكتبة الرقمية العالمية التابعة لليونسكو، ومكتبة الكونجرس.

مَن راقبَ الناسَ ازدادَ خبرةً ومعرفةً

الدكتور عبدالقادر الشيخلي
المستشار في رابطة العالم الإسلامي
هيئة علماء المسلمين

هذا العنوان هو الوجه المعاكس لمقولة "من راقب الناس زاد همّاً" وكلاهما بمثابة وجهَيْ حكمة واحدة. فمن يُراقب الناس يتساءل: لماذا يظلم بعض الأفراد؟ ولماذا يكذب أحدهم؟ ولماذا لا يستقيم هذا أو ذاك؟ ولماذا ينثر المزعج إزعاجه على الآخرين؟ ولماذا هذا المُسن لا يُصلي؟ ولماذا هذا بخيل أكثر مما يجب؟

هذه هي الهموم أو الغموم الوليدة من هذه المراقبة الشخصية. فالناس أجناس وليسوا متشابهين كطوابع البريد. وأية إساءة تواجهك تغمك، وأي معروف تسديه للغير تتوقع معروفاً مثله أو أقل منه. أما إذا واجهتَ إساءة مقابل معروف قدمته للغير، فهذا يغم النفس بلا شك.

ويحسن مراقبة الناس للاستفادة من خبراتهم الناجحة، وبعض التجارب يمكن اقتباسها فيمارسها المرء تأسيساً لخبرة جديدة لديه.

كما أن مراقبة الناس تُزيد المراقب معرفةً بأنماط الناس وميولهم، فيدرك الحسن والقبيح، والذي أخذ من هذا بقسط ومن ذاك بقسط آخر. وشريطة مراقبة الناس أن تكون شرعية وإلاَّ عُدت تجسساً، فيلاحظ المرء الآخرين دون أن يدرك هؤلاء أنهم تحت أضواء المراقبة. ومن مزايا هذه المراقبة معرفة معدنهم الأصلي، فهذا موضع ثقة، وآخر لا ثقة لديه. وقد قال "وليم شكسبير" الكاتب المسرحي البريطاني: "إن الحياة مسرح ونحن ممثلون عليه"، وهذا كلام في غاية الدقة والصواب. فقليل من البشر من يُمارس سلوكه مع الجميع دون تغيير، ويكون لون شخصية هذا الفرد اللون الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض، فيعرفه القاصي والداني دون حاجة للسؤال عليه.

والحقيقة أن مراقبة الناس متعة نفسية، لأنك ستكشف حقيقة الشخص مهما تلوَّنَ أو ظهر في غير حقيقته، فتصادق هذا وتتجنب ذاك.

ومن خلال المراقبة تتيقن أن "س" من الناس جدير بالثقة ومن ثم صواب صداقته، بينما تلحظ أن "ص" من الناس إنسان مصلحي أو انتهازي أو غير جدير بعلاقة دائمة، وبمناسبة ورود كلمة "مصلحي" فيحتاج الأمر إلى بعض البيان.

وهناك سوء فهم أو رداءة في تحليل لمن ندمغه بالمصلحية، فالبشر جميعاً مصلحيون، وتتفاوت هذه المصلحية بين فرد وآخر، فبعضهم تكون عنده صارخة، وبعضهم تكون معتدلة، إلا أن هذه الصفة متوفر للجميع فكل إنسان يتصرف وفق احتياجاته ومنافعه الخاصة، وهذا أمر لا تثريب عليه، ولكن التثريب يكون حينما يصبح الفرد: آخذاً دون أن يعطي!! وبعض الزهاد قال لصاحبه: إني أفتش عن صديق منذ أربعين سنة فلم أعثر عليه، فأجابه الآخر إنك تفتش عن إنسان يُعطيك ولم تفتش عن إنسان تُعطيه. إن الحياة والعلاقات الاجتماعية السوية عبارة عن أخذ وعطاء، ومن يرغب أن يأخذ بصفة دائمة دون أن يعطي ستنكمش علاقاته الاجتماعية إلى الحد الأدنى.

والإنسان حينما يكون في منصب وظيفي معين يزداد أصدقاؤه ومعارفه بشكل كبير، لكنه حينما يفقد المنصب يتبخر المحيطون به والمدَّاحون وذوو الزلفى، فتصبح الصورة الاجتماعية أمامه حقيقية وواقعية، فالناس تتجاور مع أصحاب المناصب، أو أصحاب المال، أو المشهورين، بينما لا علاقة لها بالمغمورين أو النكرات!!

إن التوازن في العلاقات الاجتماعية ضروري. وأسرار المرء ينبغي دفنها في قلبه. فإن أصدقاء اليوم قد يصبح بعضهم أعداء الغد، وقد يستخدمون أسرارك للتشهير بك وإلحاق الأذى المعنوي بك.

وينبغي أن تكون معايير المرء لانتقاء الأصحاب والأصدقاء موضوعية وواقعية، فلا ينشد الكمال لدى الآخرين، لأن الكمال لله وحده لا شريك له، وإنما ينشد إنساناً يتبادل معه الاحترامات والخدمات الشرعية المشتركة.

والحياة الاجتماعية مشحونة بأنماط الشخصيات، وفقط بالمراقبة الدقيقة يمكن التحقق من أهلية هذا للصداقة، وافتقار غيره لهذه الأهلية. وحينما تنشأ العلاقة يجب أن تكون متوازنة المنافع والمشاعر والقدرات، فلا يطلب المرء من صديقه الخلو من المعايب أو النواقص، وإنما يكتفي بإنسان معتدل وبسيط ويحرص على احترام الغير.

في ضوء هذا الإدراك تتحقق لدينا خبرة ومعرفة بالآخرين من خلال مراقبتهم فتكون علاقتنا معهم من خلال التحقق من حقيقة أفعالهم وأقوالهم. إن أخطاء الغير خبرة ثمينة لنا، ومعرفة حقيقة شخصياتهم تُغنينا عن الدخول معهم في علاقات قد تكون فاشلة، والأفراد أذكى من بعض، فنحرص على معرفة حقيقة ذكاء هذا أو خبرة ذاك، وكل ذلك يصب في ميزان شخصيتنا الفردية التي نُمارس من خلالها علاقاتنا الاجتماعية الناجحة.

إن نُشدان الجمال والكمال في العلاقات الاجتماعية فكرة لا تخلو من سذاجة في النظر، لأن هذه الحياة مزيجة من الخير والشر، ومن النور والظلام، ومن السعادة والتعاسة، لذلك يحسن بالمرء أن يكون واقعياً، فلا ينشد المجتمع المثالي، أو العلاقات الوردية بين الأفراد، فمفهوم السعادة يختلف من فرد إلى آخر، وما تطلبه من الغير قد لا يكون مستعداً لتقديمه، فينبغي التصرف مع الأفراد وفق قدراتهم واجتناب الطلب منهم بتغيير شخصياتهم أو تقديم ما لا يقدرون عليه، ومعظم الناس يخشى من التدخل بشؤونه حتى لو كانت نصيحة لصالحه، فالنصيحة تُقدم لطالبها، وإن رفضها البعض فمن حقه ذلك.

قيمة المواطنة..
سبق تاريخي إسلامي

د. التجاني بولعوالي
كلية الإلهيات والدراسات الدينية
جامعة لوفان - بلجيكا

تشكل المواطنة عاملا موحدًا لمختلف شرائح المجتمع ومكوناته، التي يجعلها محكومة بالتناغم واالتفاعل والتقارب، لا التنافر والتشتت والتباعد، لاسيما إن هذه القيمة الأخلاقية والاجتماعية تنطوي على إمكانيات هائلة وعجيبة، إذا تم استثمارها بشكل عقلاني ومتوازن سوف تترتب عنها نتائج محمودة للشعب والأمة والبيئة.

وما أحوج المجتمعات الإنسانية اليوم إلى هذه القيمة التي تضع جميع مكونات المجتمع وشرائحه على قدم المساواة، وتعامل الكل من منطلق المواطنة العادلة لا التوجه الثقافي أو الإيديولوجي. ومن شأن ذلك أن يرد الاعتبار خصوصًا للشرائح المسلمة والأجنبية المستقرة في المجتمعات الأوروبية والغربية عبر كسر الثنائيات العنصرية التقليدية الأنا/الآخر، النحن/الهم، المتحضرون/البرابرة، ويبدد أو يخفف وطأة التمركز الذاتي عبر منح فسحات مناسبة للهوامش قصد التعبير عن وجودها التاريخي والحضاري.

لقد أدرك الكثيرون؛ مؤسسات وأفرادًا الأهمية القصوى لمسألة المواطنة، لاسيما في زمن النكوص الاجتماعي والتردي الأخلاقي والطغيان السياسي، فراحوا يلتمسون الحلول والبدائل في هذه القيمة الجوهرية، التي صارت اليوم حديثَ مختلف النوادي التربوية والدينية والاجتماعية والسياسية والإعلامية. وقد تمت تنمية قيمة المواطنة وتطويرها من مجرد مفهوم صوري إلى منهج عملي يحضر في مختلف المؤسسات التربوية والاجتماعية والسياسية.

ونركز في هذه الورقة على السبق التاريخي الإسلامي في إرساء قيمة المواطنة وفق التوجيه القرآني وفي ضوء الهدي النبوي، في زمن كانت تسود فيه العالم الجاهلية الأخلاقية والضلال الروحي والظلم الاجتماعي. بالإضافة إلى التطرق لأهم المحطات التاريخية للمواطنة في بعض المناطق منذ العهد الإغريقي إلى اليوم، مع مناقشها من المنظور الإسلامي.

سبق تاريخي إسلامي

إن أول ملاحظة يمكن تسجيلها ونحن نقارن

بين قيمة المواطنة في الإسلام ولدى الآخرين، هي أن هذا المفهوم قطع أشواطًا طويلة ومتنوعة في الغرب قبل أن يبلغ الدرجة التي هي عليه، في حين أنه ولد في الإسلام مكتملا، وهو يستمد روحه ومبادئه من نصوص الوحي وأحاديث النبوة، التي كثيرًا ما تتمحور حول المواطنة الصالحة والحسنة، وتخطط لمجتمع مثالي يحضن كل مواطنيه دون تمييز أو إجحاف، حيث الجميع سواسية كأسنان المشط.

وقصد استيعاب الفهم الغربي لمسألة المواطنة لا مناص من التطرق إلى أهم الأطوار التاريخية والمعرفية التي مرت بها منذ العصر اليوناني إلى اليوم (باتريكا براندر، ٢٠٠١)، مع مناقشتها من وجهة النظر الإسلامية.

جذور إغريقية للمواطنة

كان المواطنون في المجتمع اليوناني القديم هم الفئة الاجتماعية التي يُخول لها القانون المشاركة في شؤون الدولة، غير أن الجميع لم يكن يتمتع بصفة "مواطن"، خصوصًا العبيد والنساء الذين اعتبروا رعايا ومواطنين من الدرجة الدنيا، ويمكن أن نستحضر في هذا الصدد تشبيه الفيلسوف أفلاطون مجتمع "دولة المدينة" بأنه بمثابة جسد ينقسم إلى ثلاثة أجزاء: أولها الرأس الذي يحمل العقل أو بتعبيره الاستعاري الرأس بكونه كرسي العقل (اللوغوس)، وثانيها الصدر الذي تنبع منه الطموحات والعواطف السامية والنبيلة (التيموس)، وثالثها الأطراف السفلى من الجسد حيث توجد العواطف الدنيا والمنحطة (الإيروس). يمثل الجزء الأول من الجسد الاجتماعي أصحاب العقول وهم الفلاسفة، أما الجزء الثاني فيمثله ذوو الأخلاق النبيلة وهم حراس دولة المدينة، في حين يمثل الجزء الثالث الجماهير العادية من الشعب، (وليان شخينكل، ٢٠٠٨).

في مقابل هذه الوضعية العنصرية، رسّخ الإسلام منذ ظهوره مبدأ المساواة بين الناس كافة، وعدم التمييز بين الرجل والمرأة، بل وحفز الإسلام المجتمع على تحرير الإنسان من الاستعباد، فأقر القرآن والسنة حكم تحرير رقبة العبد من الاسترقاق في مختلف المناسبات، كما هو الأمر أثناء إعطاء زكاة الأموال التي يمكن تخصيصها لعتق الرقاب، "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ"، (التوبة:٦٠).

بين المواطنة والهوية الوطنية

سادت هذه الرؤية طويلا عبر التاريخ، حيث تنامت النزعات القومية والوطنية التي ظلت ترهن المواطن بالمجال الترابي الذي يستقر فيه، وتشحنه بالعصبية الجاهلية والعرقية الضيقة، ما فسح المجال أمام الصراعات المريرة بين مختلف الإمبراطوريات. ولعل أهمها ما يعرف في التاريخ بالحروب الدينية التي نشبت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، واستغرقت أكثر من ١٣٠ سنة، سادها قتال شرس عمّ معظم الإمبراطوريات، توقف بشكل نسبي عقب عقد اتفاقية مونستر عام ١٦٤٨، (هانك فروم، ٢٠٠٣).

على العكس من ذلك تماما، يركز الإسلام في قضية المواطنة على البعد الديني الجامع، الذي يتخطى الإحداثيات الجغرافية ليوفق بين الشعوب المسلمة أينما كانت، وكيفما كانت،

ما يعني أن الإسلام يرفض ذلك التشبث الأعمى بالهوية الوطنية بالمفهوم الضيق، ويدعو إلى ما هو أوسع من ذلك، وهو مفهوم الأمة الذي يستوعب المسلمين كلهم أجمعين، بغض النظر عن انتمائهم العرقي ولون بشرتهم ولغة حديثهم وتموقعهم الجغرافي، وهذا ما يشدد عليه القرآن الكريم بشكل واضح: "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ". (الأنبياء:٩٢).

من البعد الليبرالي إلى البعد الاجتماعي

بدأت إرهاصات البعد الليبرالي للمواطنة تبزغ منذ القرن التاسع عشر، وتحديدًا عقب اتفاقية مونستر، حيث انصب التركيز على مصالح المواطنين، على اختلاف شرائحهم وانتماءاتهم ومعتقداتهم، الذين أصبحوا يتمتعون بالحقوق السياسية والانتخابية. ولعل ذلك يشكل قفزة نوعية في التاريخ السياسي والفكري الأوروبي، الذي كانت قد مهدت له فلسفة عصر الأنوار، التي ما هي إلا ثمرة لما غرسه العلماء والفلاسفة المسلمون. غير أنه كما يكشف فيلسوف الدين الهولندي هانك فروم ظل تنزيل بنود معاهدة مونستر على أرض الواقع نسبيا، لأن حاكم أو أمير كل منطقة أو دولة كان يسود البلاد في إطار ما تقرره تعاليم كل دين، وهذا ما لم يكن أبدًا في صالح الأقليات الدينية الأخرى.

وانطلاقاً من القرن العشرين سوف ترتفع أصوات تقول بأن الحقوق المدنية والسياسية ما هي إلا جزء مما ينتظره المواطنون من الدولة، لأنه فضلا عن ذلك، هناك حقوق جوهرية تتعلق بتحسين ظروف العيش والعمل. وقد ترجمت هذه المطالب منذ منتصف القرن العشرين في شكل مواثيق عالمية مشتركة تصدرها منظمات دولية، تأتي منظمة الأمم المتحدة على رأسها.

وقد سجل المسلمون أيضا السبق التاريخي في هذا المجال منذ قرون طويلة، لاسيما أثناء مرحلة حكم العمرين رضي الله عنهما؛ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، اللذين طبّقت عدالتهما الآفاق، فذاق عسيلتها الداني والقاصي، المسلم وغير المسلم. ولعل العهدة العمرية التي وجهها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل إيلياء أثناء فتحه التاريخي للقدس تظل خير شاهد على قيمة المواطنة، التي جاء بها الإسلام في سياق كان محكومًا بالظلم والاستبداد والهمجية.

التربية على المواطنة

أصبح هناك اليوم نوع من الإجماع على أن المواطنة ليست مسألة فطرية، وإنما تُكتسب بالتعليم والتربية، لذلك عملت الكثير من المؤسسات البيداغوجية الأوروبية والغربية على إدخال مسألة المواطنة في البرامج التعليمية. وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى الأنموذج الهولندي الذي اعتمد المواطنة، بصيغة رسمية في المناهج الدراسية منذ عام ٢٠٠٦، حيث يتم التفريق بين المواطنة بكونها نتيجة والمواطنة باعتبارها ممارسة.

يُركز في المقام الأول على المعارف والأدوات التي يكتسبها الطالب أثناء الدراسة، ليستثمرها فيما بعد بكونه مواطنًا في المجتمع. أما في

المقام الثاني، فيساهم الشباب في الحياة الاجتماعية، ويتعلمون كيف يكونون مواطنين من خلال المشاركة في مختلف الممارسات الاجتماعية والثقافية داخل الأسرة، في وقت الفراغ، في العمل، في المدرسة وغير ذلك، حيث يتم التفاعل مع الآخرين (خيرت تن دام، ٢٠١٠).

لقد سبقت الإشارة إلى أن المواطنة ولدت في الإسلام مكتملة، ليس على المستوى النظري فقط، بل على صعيد التطبيق والتنزيل الواقعي أيضًا، لاسيما أثناء المرحلة النبوية والخلافة الراشدة، عندما أرسيت دعامات المجتمع الإسلامي الأنموذج، الذي كان متميزًا سواءً عن المجتمع الجاهلي المحلي أو عن المجتمعات الأجنبية الرومية والفارسية، فظهرت لأول مرة في تاريخ الإنسانية مفاهيم الكرامة، المساواة، العدالة، الشورى وغيرها، التي تشكل اللبنات الأساسية لمسألة المواطنة، ليس في ذلك الزمان والمكان فقط، بل عبر كل الدهور والجغرافيات. وهذا ما يسري، بشكل أو بآخر، على مسألة المواطنة كما يُنظّر لها اليوم في مختلف البلدان الغربية.

مواطنة غربية بروح إسلامية!

نقترح في هذا الباب وثيقة رسمية حول ما يطلق عليه "المواطنة المسؤولة"، أصدرتها وزارة الداخلية الهولندية عام ٢٠٠٩، وقد دبّجتها بالفقرة الآتية:

"نحن نتمتع بحقوق، لكن في الوقت ذاته نخضع لقوانين، ونسعى إلى حياة مستقلة، ولا مجال هنا للنقاش. بالإضافة إلى ذلك، توجد قوانين، آراء وسلوكات غير مقننة بواسطتها نساهم جميعًا في صياغة المجتمع. هذه العناصر التي تتركب منها المواطنة المسؤولة تعتبر مفتاح المجتمع الحيوي والديمقراطية الجيدة. إن المواطنة بهذا المعنى، لا تقتصر على الخضوع أو الجرأة، وإنما تتضمن عناصر الموقف النقدي والمواجهة البناءة، وأثناء النقاش حول المجتمع في هولندا يشكل تأهيل وتعضيد التعايش أهم منطلق". (وزارة الشؤون الداخلية الهولندية، ٢٠٠٩).

تتأسس هذه المواطنة المسؤولة، حسب هذه الرؤية الهولندية الرسمية، على أربع دعامات جوهرية هي: الاحترام، التكافل الاجتماعي، حماية البيئة وتأهيل آلية الديمقراطية، حيث جرى شرح كل عنصر على حدة، كما يتحدد من خلال الاقتباسات الآتية:

الاحترام: وينبني على مبدأ الكرامة الإنسانية باعتبارها توفر مناخًا من الاحترام المتبادل للذوات والمواقف والحقوق والممتلكات الاجتماعية، مع الوعي العميق بتأثير سلوك الإنسان على الآخرين.

التكافل الاجتماعي: الذي يحفز شعور الأمن والطمأنينة، ويرسخ قيم التقارب والاعتناء المتبادل التي تعضد التكافل الاجتماعي من جهة، والارتباط سواءً فيما بين الناس أم فيما بين الناس والمحيط من جهة أخرى.

حماية البيئة: ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار المحيط والطبيعة، ونعتني بهما دون إهدار وتبذير، حتى لا نحرم الأجيال القادمة من حقها في ذلك. لهذا، يتحتم علينا أن نكون في خياراتنا وسلوكاتنا واعين بالمستقبل.

تأهيل آلية الديمقراطية: الديمقراطية تعتبر مكسبًا يجب تثمينه، حيث يحق للجميع أن يساهم في هذا المسار، ليس بنيل الحقوق فقط، بل بالمحافظة على هذا المكسب أيضا.

بناءً على ما جاء في هذه الوثيقة الرسمية من أفكار تعتبر المحددات الجوهرية لمسألة المواطنة في الغرب عامة، يظهر أنها لا تختلف كثيرًا عن الرؤية الإسلامية العامة لهذه القضية، حيث كرم الله تعالى الإنسان غاية التكريم، "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"، (الإسراء:٧٠). وتسامح مع غير المسلمين الذين ضمن لهم القانون الإسلامي مختلف الحقوق المدنية والدينية والاجتماعية، كما هو منصوص عليه في العهدة العمرية وغيرها من الاتفاقيات التاريخية. كما رسّخ الإسلام مبدأ التكافل الاجتماعي الذي صان حرمة الفقراء والمساكين والمحتاجين، ودعا إلى التعاون والتضامن بين مختلف فئات المجتمع، "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"، (المائدة:٢) دون أن يغيب المحيط الذي هو بمثابة المأوى الطبيعي للإنسان، فحث على حماية البيئة والرفق بالحيوان ونظافة المحيط وما إلى ذلك. ولن تتحقق هذه الأمور إلا في ظل مجتمع متوازن ومنفتح تحكمه العدالة والمساواة والشورى، "وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"، (الشورى:٣٨).

خلاصة

إن المواطنة أصبحت تشكل اليوم أهم قيمة يتقاطع فيها ما هو اجتماعي وأخلاقي وسياسي، وتشترك فيها مختلف الفلسفات والثقافات والأديان، فهي ليست ثمرة الديمقراطية الغربية، كما تدّعي بعض النظريات الفكرية والفلسفية الغربية، بل نتيجة واقعية للحاجة الوجودية لدى الإنسان في العمران البشري بالمفهوم الخلدوني، فمع أن محدد الصراع يظل حاضرًا في العلاقات الإنسانية، ليس فقط من أجل النفوذ الترابي بالمفهوم القديم للاستزادة من الماء والكلأ والأرض، ولا من أجل التوسع الاستراتيجي بالمفهوم الحديث للتحكم في الاقتصاد والمال والإعلام، بل من أجل الحق/الحقيقة الذي هو مدار الأسطورة والفلسفة والدين والقانون، فهذه الحقول المعرفية على تباين منطلقاتها وآلياتها تسعى كلها إلى إقرار الحق وادعاء الحقيقة. وهذا ما كان يقتضي عبر الأزمنة والأمكنة إشعال فتيل الصراعات وتأجيج الحروب، إلا أن ذلك لم يحجب رغبة الإنسان الدفينة في التقارب والتعايش والاجتماع، إذ يشهد التاريخ الإنساني على التقاء الحضارات وتداخل الثقافات وتمازج الشعوب في غير ما مرحلة أو منطقة. واليوم قد تهيأت مختلف الأسباب الثقافية والسياسية والاقتصادية والتواصلية لأن يجتمع الناس من شتى الثقافات والهويات والأعراق في مجتمع واحد تحكمه قيم العدالة والديمقراطية والمواطنة. وكلما شكلت المواطنة إطارًا أخلاقيًا منظمًا لعلاقات الناس فيما بينهم على اختلاف أروماتهم ومعتقداتهم ومشاربهم، تبددت غمائم الخوف المتبادل بين مكونات المجتمع الواحد، وتلاشى القلق الوجودي الذي يقف حائلا بين الذات والآخر، بين المتحضر والبربري وبين الغرب والإسلام.

ثقافة العدل والتعايش السلمي بين أتباع الأديان

الملك النجاشي مثالا

د. محمد تاج العروسي

العدل: هو استعمال الأمور في مَواضِعها، وأوقاتِها، ووجوهِها، ومَقاديرها، من غير سَرَفٍ، ولا تقصيرٍ، ولا تقديمٍ، ولا تأخير. والعدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو الميزان المستقيم الذي يحدد العلاقات بين الناس.

وبالعدل قامت السماوات والأرضون، قال الله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ أي شرع العدل وأمر به، وبه تجتمعُ القلوب، ويَحْصُلُ التَّمْكِين، وَيَسْتَتِبُّ الأمن والأمان، وتَخْفُتُ الثوراتُ والفتنُ والاضطرابات، ويُؤْخَذُ للضعيف حَقُّه، ويُنْصَفُ المظلومُ من ظلمه، ويُمَكَّن صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقه، يقول الله تعالى: ﴿لقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. وبقدر ما أَمَرَ الإسلامُ بالعدل وحثَّ عليه، حَرَّمَ الظلم أشدَّ التحريم، وقاومه أشدَّ المقاومة، خاصة ظُلْم الأقوياء للضعفاء، وظُلْم الأغنياء للفقراء، وظُلْم الحُكَّام للمحكومين.

يقول ابن تيمية: "فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةَ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى: اللَّهَ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً".

النجاشي وعدله: يعد النجاشي أوَّل حاكم عرف في التاريخ الإسلامي بنشر العدل ونصرة المظلوم، ونشر ثقافة التسامح بين أتباع الأديان، فبذلك ذَاعَ صِيْتُهُ في أَرْجاءِ المَعْمُورَةِ، وأصبح رَمْزاً للعدْلِ والمساواة بين الناس، وكان عدلُه سببًا في انتشار الإسلام في القرن الإفريقي والمناطق المجاورة لها، وتعايُش أتباع الأديان المختلفة مع بعضهم البعض متسالمين ومتسامحين.

كما أنَّ عَدْلَه جعله يَنَالُ شَرَفاً كبيراً، ومنقبةً عظيمةً في التَّاريخ الإسلامي، فقد أثنى المصطفى صلى الله عليه وسلم عَلى النجاشي وعلى بلَدِه (الحبشة) واختارها لهجرة أصحابه دون غيرها من البلدان، وعرفت - منذ فجر الإسلام - بأنها بلد الحرية، والعدل، والمساواة والتعايش السلمي بين أتباع الأديان، ومأوى كُلِّ مضْطَهَدٍ ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتوجه إليها قائلا: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما

أنتم فيه فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ وَفِرَارًا إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ هِجْرَةٍ كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ"، وذلك عندما أَنْذَرَ عشيرته الأَقْرَبين، وَطَاشَ مِنْ قُرَيشٍ صوابُها، وَخَرَجَتْ عن وَقَارِهَا، فَأَذَاقَتْ المسلمينَ الأمرَّ، ومسَّ أهلَ الإيمان الضرُّ، ولاقَوْا من البلاء، والتعذيب والمضايقات مالا يُطَاق، فَلاَ قُوَّةَ تَحْمِيهِمْ، وَلَا حِلْفَ يُؤْوِيهِمْ، فَأَذِنَ لهم أنْ يُهاجِرُوا إلى أرض الحبشة، وأخبرهم بفضلها -أي أنَّها أرض صدق-، وعدلِ ملكها، أي أنه ملك عادل وحاكم مقسط لا يُظْلَمُ عنده أحد، والظَّالِمُ لا يَنتصر عنده على أهل الحق مهما أوتي من القوة، والشهرة، والمكانة، والجاه، والمال.

عدل النجاشي بين المهاجرين ورسل قريش

عزَّ على قريش أن يجد المهاجرون مأمنًا لأنفسهم ودينهم، وأن يكون في ذلك تغَيُّرُ ميزان القوى، فقررت أن ترسل وفداً رسميا إلى النجاشي ليتفاوض معه في كيفية إرجاع هؤلاء اللاجئين، فاختارت للقيام بهذه المهام عمرو بن العاص - وهو داهية العرب -، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، على الرأي الراجح، وطلبت منهما أن يسرعا في السير حتى يصلا عند النجاشي قبل وصول المهاجرين، وأرسلت معهما هدايا للنجاشي وبطارقته مما يستطرف من متاع مكة، وأوصتهما بدفع هدايا البطارقة إليهم أوَّلاً قبل الحديث مع النجاشي بشأن إعادة المهاجرين إلى أهاليهم، ويُقَدِّمَا للنجاشي هداياه ويطلبا منه أن يسلم المهاجرين إليهم قبل أن يكلمهم، ونُفِّذَتْ الخطة بحذافيرها.

اتفق الرسولان مع البطارقة على إقناع النَّجَّاشي بإعادة المهاجرين إلى قريش قبل أن يكلِّمهم، بحجة أن قومهم أدرى بحالهم وبما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، ثم قدَّما للملك الهدايا بحضور البطارقة، وقَالَا لَهُ: "أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ".

ملاحظة: لم يوفق عمرو بن العاص في عرض القضية أمام النجاشي عرضًا مقنعًا بل حصلت منه هفوات وسقطات في كلماته وعباراته، وإساءات للمهاجرين جعلت النجاشي غير مقتنع بالحجج التي قدمها، والمبررات التي ذكرها، فلم يتسرع إلى الاستجابة لمطالب الرسل.

أولا: وصف المهاجرين بغلمان سفهاء مع أنهم يعتبرون من أشراف القوم، ظنا منه أن النجاشي يأخذ بكلامه مباشرة ويسلمهم لهما قبل أن يتعرف عليهم وقبل أن يسألهم لماذا لجئوا إلى بلده.

ثانيا: أراد أن يوغر صدر النجاشي على المسلمين الذين فروا إلى بلده، فقال: "لم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت". أي أنهم لا دين لهم.

ثالثا: ادعى أنهم مطالبون من قبل أهاليهم حيث قال: " قد بعثنا إليك أشراف قومهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه".

موقف النجاشي من خطابه: رأى النجاشي أن يتبين حقيقة الأمر قبل أن يتخذ أيَّ موقف تجاه اللاجئين الضعفاء الذي اختاروا حمايته؛ لأنه ليس من العدل والإنصاف الحكم بين الخصمين إلا بعد سماع حجج الطرفين جميعا، وهذا من أصول القضاء ومبادئه وأوَّليَّاته، خاصة أنه استشف عدم صدقه في الكلام، من الأساليب التي استخدمها؛ حيث انتقص من شأنهم ووصفهم بأنهم غلمان أبَقُوا من أسيادهم، وأنهم لا دين لهم، ولا يحترمون أيَّ دين، فهذه الأوصاف التي وصفهم بها المهاجرين، لفتت فِعلاً نظر النجاشي، وزاده ريبة تسرع البطارقة إلى تأييد كلام عمرو بن العاص مباشرة، ومطالبتهم النجاشي بتحقيق مطالب رسل قريش بإعادة المهاجرين إلى مكة قبل سؤالهم عن التهم التي وجهت إليهم.

فطلب النجاشي من الأساقفة أن يُحضِروا إلى مجلسه هؤلاء المهاجرين ليسألهم عن تلك التهم التي وجهت لهم، وقال: لا أسلم قومًا جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعُوَهم فأسألهم عمَّا يقول هذان الرجلان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

فلما حضروا سألهم عن الدين الجديد الذي اعتنقوه، وعن سبب فراقهم لدين آبائهم، وكان المتحدث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فبين له مزايا الدين الإسلامي الذي اعتنقوه، من الصدق والأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، وسفك الدماء، وما كانوا عليه قبل ذلك في الجاهلية من الظلم وإتيان الفواحش، وقتل الأبرياء وأكل أموال الناس بالباطل، واعتداء القوي على الضعيف ظلما وعدوانا... إلى أن قال: فبغى علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأصنام، فلما قهرونا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

وقد وفق جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في طرح القضية أمام النجاشي بأسلوب أدبي رائع جدا، مع تحري الصدق، والبعد عن استخدام كلمات فيها جرح للآخرين خلاف ما كان مِنْ عمرو بن العاص في ذلك كله، وأحسن كذلك عرض القضية، وتصوير المظلمة، وطريقة عرض الاستجارة، مع الثناء على النجاشي، فكانت الاستجابة لمطالبهم سريعة وقوية من النجاشي العادل، فقال النجاشي هل معكم مما أنزل عليه شيء تقرؤونه علي؟ قال جعفر: نعم فقرأ "كهيعص" فلما قرأها بكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم وقال النجاشي إن هذا الكلام والكلام الذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، ثم قال والله لا أسلمهم إليكما ولا أخلي بينكم وبينهما فالحقا بشأنكما".

وهكذا أعلن النجاشي أن نصرة هؤلاء المظلومين واجبة عليه بغض النظر عن دينهم وأن التسامح أمر يفرض عليه دينه مهما كانت مكانة الرسل المبتعثين، ومكانة قريش عنده التي أرسلتهم.

الخطوات التي اتخذها:

أولا: أمَّنهم من أن يتعرض لهم أحد من البطارقة المقربين أو عامة شعبه بأي أذى وسوء بسبب دينهم، فقال لهم: اذهبوا فأنتم شيوم

بأرضي مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ. وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ.

ثانيا: قال للبطارقة رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَ اللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ، فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ.

ثالثا: حقق قيم العدالة والتسامح بين المهاجرين وبين شعبه من جهة، وبينهم وبين من جاءوا يطاردونهم من جهة أخرى، تقول أم سلمة رضي الله عنها: "وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً".

رابعا: أعطاهم اللجوء السياسي، فعاشوا آمنين مطمئنين بين مجتمع يختلف عنهم في العقيدة والعادات.

رابعا: أقنع الأساقفة بكون المهاجرين على حق، وطلب من جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليه شيئا مما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص.

خامسا: أعلن أمام البطارقة احترام حرية الاعتقاد للمسلمين المهاجرين، وحرية التعبير عن عقيدتهم علنا.

فكان ملكاً عادلا لحمايته للمهاجرين الضعفاء أصحاب الحق، ومتسامحا معهم كي يمارسوا دينهم علنا دون أن يتعرض لهم أحد بأذى بسبب اختلافهم معهم في المبادئ والدين، وعادلا مقسطًا لرفضه هدايا سفراء قريش، عندما تبين له أنهم غير صادقين في دعواهم، فالصدق منجاة، والكذب مهواة، فلا شيء كالمصارحة في التعاطي مع المعلومات الهامة في أوقات الأزمات.

بالصِّدْقِ ينْجو الفتى من كلِّ مُعْضلةٍ والكِذْبُ يُزْري بأقْوامٍ وإن سادُوا

واستحق النجاشي مكانة عظيمة عند الله بسبب عدله، فأصبح من" السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، منها إمام عادل" متفق عليه، ونال كذلك محبة الله له، وروي البيهقي في شعب الإيمان، "إن أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل"، والمراد به ما يشمل الإمام الأعظم ونوابه والقضاة ونوابهم.

قال ابن حجر رحمه الله: المراد به صاحب الولاية العظمى ويلتحق به كل من ولي شيئا من أمور المسلمين فعدل فيه، ويؤيده رواية مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا".

وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْعَادِلُ، أَنَّهُ الَّذِي يَتَّبِعُ أَمْرَ اللَّهِ بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ وَقَدَّمَهُ فِي الذِّكْرِ لِعُمُومِ النَّفْعِ بِهِ.

نشره ثقافة التسامح بين أتباع الأديان

لقد سن النجاشي رحمه الله سنة حسنة لكل من يأتي بعده من الملوك والرؤساء وعامة الناس كذلك، بإعطائه الحرية الكاملة للمهاجرين، كي يمارسوا دينهم علانية، وتحذيره الناس من أن يتعرضوا لهم بأذى، ووضعه عقوبة صارمة

لمن يسيء التعامل مع المهاجرين، فهذه السنة الحسنة استمرت في الحبشة على مر التاريخ، وهي قائمة إلى يومنا هذا رغم وجود جهات تسعى لإيجاد نوع من التعصب الديني بين الناس، ونشر ثقافة التفاضل بين الطبقات على اختلاف أديانها وتفاوت ثقافاتها وحضارتها.

وفيما يلي ألقي الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بذلك.

أولا: يقصد بالتسامح الديني التأقلم مع جميع أصحاب الديانات السماوية، وعدم حرمانهم من ممارسة شعائرهم الدينية، والعيش مع الآخرين في جو يسوده الألفة والتعاون للنهوض بالمجتمع.

فخُلُق التَّسامح من أهمِّ القِيم الإنسانيَّة؛ إذ يُنظَر إليه على صعيد الفرد كمُكتسَبٍ قِيَميٍّ يُعزِّز احترام الفردِ لذاته، ويُنظَر إليه مجتمعيًّا على أنَّه يُحتِّم على الجميع احترامه والالتزام بمضامينه وأخلاقيَّاته.

فلا ينبغي الطعن في عقائد الناس يقول الله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾.

ويقصد به كذلك الاشتراك مع الآخرين في الحياة في ضوء الروابط التي تربط بين الناس وهي كالتالي:

أ. رابط الإنسانية الذي يجمع بين الناس كلهم على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، وعقائدهم.

ب. رابط العلاقة الوطنية؛ حيث تربط بين الشعوب المختلفة، والأمم المتعددة في وطن واحد.

ت. رابط العلاقة الدينية التي تربط بين أبناء الدين الواحد.

ثانيا: يعد التسامح ثمرة للتعايش ونتيجة عنه، فلا يمكن أن يكون التسامح إلا بعيش مشترك لجماعة من الناس، تحمل أفكارًا وتصورات متباينة، وتنتمي إلى ديانات مختلفة، وهو قيمة راقية لا تصدر إلا عن نفوس كريمة، وله آثارٌ إيجابية على الفرد والمجتمع، كما أنه يسهم في البناء الحضاري، الذي يعني انطلاق نمط من أنماط السلوك الإنساني، يعترف بالآخر، فيؤثر فيه ويتأثر به، وهو ما يعني حضارةً قويةً وممتدةً، لن تعصفَ بها التقلباتُ المختلفة.

ثالثا: تحقق بأرض الحبشة هذا النوع من التسامح الديني منذ الهجرة الأولى للصحابة ولا يزال قائمًا حتى يومنا هذا، فقد أصحبت الحبشة ملجأً وقبلةً لكل مضطهد في دينه، وعيشه عبر القرون أفرادًا وجماعات.

فحدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أزمات تتعلق بالسياسة، والاقتصاد، والأوضاع الأمنية، والاجتماعية دفعت عددًا من الصحابة والتابعين للهجرة إلى البلدان المختلفة، توجه أغلبهم إلى آسيا، وشرق إفريقيا، خاصة المناطق الساحلية المتاخمة للحبشة، حيث الخير العميم، والحياة بأمان.

وباستلاء الأمويين على منصب الخلافة جَدَّ من العوامل ما أدى إلى هجرة أكبر عدد من القبائل العربية على فترات متتالية إلى ما يعرف الآن بـ (القرن الإفريقي) أي "الحبشة سابقًا".

خاصة في أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي، واستوطنت معظمها في ربوع البلاد، وتداخلت مع السكان الأصليين رغم اختلاف الأديان والعادات والتقاليد بينهم، ونشرت الإسلام ودخل الناس فيه أفواجا، وتأسست إمارات وسلطنات إسلامية في مناطق متاخمة للحبشة، وأخرى متغلغلة في داخل أرض الحبشة المعروفة الآن بإثيوبيا نتيجة التسامح الديني الذي وضع قاعدته الإمام النجاشي، فكان الغالب على سكانها التعايش السلمي، والتسامح الديني، وإن كانت هناك صراعات بين مملكة الحبشة وهذه الممالك عدة قرون.

واستمر الأمر كذلك إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي؛ حيث سجل التاريخ خضوع أغلب المناطق بما فيها المنطقة الشمالية التي كانت تحت سيطرة المملكة المسيحية للحكم الإسلامي في الفترة ما بين ١٥٢٧-١٥٥٩م بقيادة المجاهد أحمد بن إبراهيم الملقب بـ" أحمد غران Gran"، وخليفته الأمير نور ابن الوزير مجاهد، واستطاع المسلمون التغلب على جميع العقبات التي واجهتهم في تلك الفترة، والتمسك بدينهم، والعض عليه بالنواجذ.

تغير الوضع بعد سقوط الممالك الاسلامية وتوحيد البلد باسم إثيوبيا، ولكن روح التسامح بين أتباع الأديان المختلفة بقيت مستمرة رغم محاولة بعض الجهات الداخلية والخارجية إثارة النزعات العرقية والمذهبية، ونشر ثقافة الكراهية والتعصب بين المجتمع الإثيوبي.

وظل التعايش السلمي هو السائد بين المجتمع الإثيوبي، فهناك تعاون ملحوظ بين الناس على اختلاف عقائدهم في جميع الأوقات، وفي كل المناسبات، وقد تجد المسيحي يهب لنصرة المسلم والوقوف بجانبه بنفسه، وماله في الأزمات، وعند حدوث كوارث طبيعية، والمسلم كذلك يقف مع المسيحي عند الضرورة، وكأن بينهم قرابة ومودة، وصلة مع أنه ليس هناك شيء من ذلك سوى قوة روح التعايش والتعاون بينهم.

وإذا حدث نوع من النزاع والخلاف بين بعض أفراد المجتمع، خاصة الذين لديهم نزعة عرقية، وعصبية دينية فتجد القيادات الدينية تسارع لاحتواء الأزمة، وحل النزاع وإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي.

خلاصة الكلام: أن العدل الذي وضع النجاشي قواعده، والتعايش السلمي الذي نادى به في عهده، ونصرة المظلوم الذي عرف به عبر التاريخ، لا يزالُ قائما في أرض الحبشة إلى يومنا هذا، ومصداق ذلك ثناؤُه على أهل الحبشة بقوله: "إنها أرض صدق"، فهي لا تكون أرض صدق إلا بأهلها وسكانها الذين يعيشون عليها، وشهادتُه للنجاشي بالعدل بقوله: "وبها ملك لا يظلم عنده أحد"، ونصرتُه للمظلوم يبينه موقفه المعتدل بين عمرو بن العاص والمهاجرين، فرغم أنه يعد من دهاة العرب، لقدرته على تدبير الأمور بحُنكة وفطنة، لكنه لم يستطع أن يخدع النجاشي بذكائه بل وقعت منه أخطاء نبهت النجاشي إلى عدم صدقه في دعواه، وأدت إلى انصاف النجاشي للمهاجرين الذين فروا بدينهم ولجئوا إلى بلده، وكلها صفات باقية وملموسة بين الناس حتى الآن، وهي منقبة عظيمة للحبشة، وصفة حميدة تبقى فيها ما بقيت السماوات والأرض، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

جزر البليار

بقايا رحيق من تراث الأندلس

د. أحمد عبد الرازق ـ مصر

جزر البليار من الماسات المنثورة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهي تابعة اليوم لإسبانيا، وقديماً كانت جزءاً من الأندلس، وربما كثيرون من مجتمعنا العربي لا يعرفون عنها شيئاً، وكانت أعيننا دائماً وأبداً تنظر إلى طليطلة وأشبيلية وغرناطة وقرطبة، وربما تكون هذه المدن هي الأبرز في تاريخ الأندلس بعهود السيادة العربية، والتي ما تزال تحمل بقايا رحيق الأمة العربية بأسماء شوارعها ومدنها بأسماء عربية، ومع ذلك تناول مؤرخونا جزءاً من تاريخ جزر البليار، ولكن بشكل عابر، وهو ما نحاول إلقاء الضوء عليه.

جـــزر البليار هـــي مجموعة جـــزر في غـــرب البحر المتوســـط، تبلغ مســـاحتها أربعة آلاف وتسعمائة كيلو متـــر مربع. تتميز الجزر بموقع اســـتراتيجي بين سواحل شرق إسبانيا وجنوب فرنسا وغرب إيطاليا، وسواحل المغرب الشـــمالية، فتعد هذه الجزر بحكم موقعها على علاقة وثيقة بسواحل البحر المتوسط وشعوبه. وما تزال حتى اليوم من أهم مراكز الصراع الدولي، لهـــذا كانت نواة للالتقاء الحضاري، وتعاقب عليها العديد من الفاتحين الغزاة وقوى الاســـتعمار. وعلى الرغم من اســـتعادة الإسبان لها من السيادة العربية إلا أن هذه الجـــزر قد حافظت عبر قرون عدة على الطابع العربي الإســـلامي. وقـــد أطلق العرب على جزر البليار اسم "الجزائر الشرقية" أو جزائر شرق الأندلس. وكانت عبر تاريخها الإسلامي ولعدة قرون، السد المنيع والدرع الواقي لساحل الأندلس الشرقي، ينطلق مـــن قواعدها رجال البحر الأندلســـيون في سواحل غربي البحر المتوســـط وجزره (انظر فتحي عثمان، الحدود الإســـلامية البيزنطية، ودائرة المعارف الإسلامية).

تتمتـــع هذه الجـــزر بمناخ جميل حيـــث يصل المعدل الســـنوي لدرجة الحرارة إلى حوالي ٢١ درجة مئوية؛ بالإضافـــة للمناظر الخلابـــة لتضاريس هـــذه الجزر حيث الجبال الشامخة التي تكسوها غابات كثيفة وأشجار مثمرة، وشـــواطئ خلابة رائعة ذات خلجان عميقـــة هادئة؛ فهي لوحة طبيعيـــة رائعة تنبض بالحيويـــة والجمال. وجـــزر البليار هـــي مجموعة من الجزر، وتعد أهمها خمس جزر رئيسية وهي: (ميورقة، منورقة، يابسة، فومنتيرة، قبريرة).

ميورقة هي أكبر الجزر مساحة في جزر البليار، وتعادل ثلاثة أرباع المســـاحة الكلية لتلك الجزر، وأراضي هذه الجزيرة ســـاحرة وخلابة؛ بالإضافة لروعـــة مناخها. وصفها المـــؤرخ ابن حوقـــل عندما زارهـــا في عهد الخليفة عبـــد الرحمن الناصر عـــام ٣٣٧هـ/٩٤٨م بأنها من نفائـــس جزائر البحر، وعمومـــاً هي غزيرة

النتاج ومعدومة الحوائج؛ وهي من أخصب الجزر أرضاً وأعدلها هواءً وأصفاها جواً ولا يوجد بها ما يؤذي من حشرات أو حيوانات. أما شـــكيب أرسلان فقد أقام بجزيرة ميورقة عشـــرين يوماً، ومن شدة إعجابه بها ظل يجمع العديد من المعلومـــات عنها في جميع جوانبها بنية إفراد كتاب يخصها، ولكنه توفي قبل إتمام عمله هـــذا. وأورد المؤرخ المصري محمد عبدالله عنان أنه حرص على عبـــور البحر إلى جزيرة ميورقة، والقضـــاء فيها أيامـــاً ثم ذكر منتجاتهـــا الزراعية؛ بالإضافة لوصفه لتضاريـــس الجزيرة، ووصف آثارها الإسلامية وصفاً شاملاً رائعًا.

أما جزيرة منورقة فيلفت الانتباه إليها ذلك التشابه الغريب بينها وبين ثغور ســـواحل الشام في المباني والطرقات، وحتى ملامح السكان؛ فهي شامية في هوائهـــا، وتمتاز ببعض الظواهر الغريبة؛ فمثلاً تتناثر الحجارة بشكل يلفت النظر في شتى أنحاء الجزيرة، ويشـــاهدها الزائر حول الحقول والأشـــجار والطرق. وأشـــجارها مع قلتهـــا ذات جذوع معوجة بســـبب الرياح الشـــمالية التي تهب في الشتاء. أما أرضها فجرداء صخرية تتخللها ســـهول ووديـــان خضراء، ومعظـــم هذه الوديان تســـتغل فـــي زراعة الحبوب وتربية الخيول والمواشـــي، ولكن كل هذا كان بعهود السيادة العربية، واليوم زالت الحقول الخضراء بعد أن

خلت من سكانها. وبقيت شهرتها بالخيول وتربية المواشي والأبقار لحد ما، ولأهلها خبرة في صناعة الجلود والألبان. (الزهري، كتاب الجغرافية، وعصام سالم، جزر الأندلس المنسية).

وسُمِّيت ثالثة الجزر باسم يابسة حيث تتميز بجبالها التي تغطيها أشجار الصنوبر، وتعد أجمل جزر البحر المتوسط وأكثرها رونقاً واخضراراً؛ بالإضافة للشواطئ الزرقاء والخلجان الصافية، وينتشر العمران فيها بشكل زائد حتى بالريف، حيث تجد حول كل مسكن حديقة مزدهرة. واللون الأبيض هو الغالب على المباني الريفية، وما زالت هذه الجزيرة حتى اليوم ذات طابع فولكلوري خلاب؛ فإيقاعاتهم وأزياؤهم وملامحهم ذات طابع مغربي، ولكن الغالب عليها الجبال، وفيها شجر الصنوبر، ويُجلب منها الملح والخشب إلى بلاد إفريقية، وقد ساهم ذلك ببناء السفن الإسلامية، وهي جزيرة كثيرة الثمار والزروع، ويُجلب منها أيضًا الزبيب واللوز والتين (الزهري، كتاب الجغرافية، القزويني، آثار البلاد، عصام سالم، جزر الأندلس المنسية).

وتشتهر جزيرة فومنتيرة بوجود شجر العرعر من الفصيلة الصنوبرية، وتقع على طرف الجزيرة الشرقي مرتفعات مولا وتبلغ ٦٠٠ قدم. وكان لهذا التل دور في العهد الإسلامي في الدفاع عنها، وحالياً هي قليلة الأشجار ولكن تبقى بها بعض غابات الصنوبر. وهي جزيرة قليلة السكان، وأزياء أهلها تقليدية تشبه ملابس سكان الريف بتونس، ويعد هواها طيبًا وتربتها كريمة ومياه آبارها عذبة، وبها عمارات ومزارع، وهي منبت الزعفران الجيد الذي لا يوجد له مثيل في أي موضع آخر.

وآخر هذه الجزر هي قبريرة، وهي صغيرة الحجم، والهدوء يخيم على هذه الجزيرة الصخرية، وقديماً كانت تشتهر بتربية الماعز، وبها مقر للمعتقلات في عهد الحروب النابوليونية، واستخدمتها السلطات الإسبانية بعد ذلك منفى للمجرمين والمناوئين للسلطة؛ فجزء كبير من تاريخها مرتبط بالسجون والمعتقلات؛ بالإضافة لكونها جزيرة صخرية قاحلة غير مأهولة باستثناء القليل من الرعاة وصيادي الأسماك، وخفر السواحل، وهذا بالإضافة لبقية معظم الجزر الصغيرة التي تتناثر في البحر بين جزر البليار الأربع الكبرى، والتي يبلغ عددها حوالي المائة جزيرة صغيرة لا تتجاوز في معظمها عن كتل صخرية لا أسماء لها، إنما تستخدم كمنارات لإرشاد السفن (القزويني، آثار البلاد، دائرة المعارف الإسلامية، عصام سالم، جزر الأندلس المنسية).

خضعت هذه الجزر للعهد الإسلامي، وما تزال فيها آثار إسلامية باقية رغم ندرتها بسبب عوامل الدمار من الغزوات، والحروب والزلازل. ومن الآثار الباقية حتى اليوم "الحمَّام المغربي"، ورغم عراقة المبنى وقيمته التاريخية فإن السلطات المحلية لا توليه أدنى اهتمام، وكذلك كنيسة سان ميجيل، وما تزال لهذه الكنيسة مكانة كبرى لدى رجال الكنيسة في جزر البليار، ويحتفل فيها مطلع كل سنة ميلادية احتفالات كبرى، تنطلق منها حشود المصلين لتستمر الاحتفالات حتى الصباح.

ومن المعالم السياحية الجميلة في جزر البليار، طواحين الهواء التي تشاهد في كافة أنحاء جزيرتي ميورقة ويابسة بصفة خاصة، وأول من ابتكر هذه الطواحين العرب ونشروها في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وظلت في جزر البليار حتى هذا اليوم شاهداً على تلك الحقبة الإسلامية الزاهرة. يشير القزويني إلى استخدام الطواحين والسواقي على أيدي المسلمين لري الحقول (القزويني، آثار البلاد).

لقد أصبحت جزر البليار اليوم بوصلة اهتمام السائحين من شتى بقاع العالم، لما تحويه من آثار، ومناظر طبيعية خلابة، وأخبار وروايات العرب المسلمين وتاريخ حكمهم.

تهانينا

بقلم: آمنة بن منصور ـ الجزائر

أسهل بيعٍ في الحياة بيع الأوهام

امتدت يده وهي ترتعش نحو حاسوبه يريد تصفح (الإيميل) الجديد الذي وصل إليه قبل ثوانٍ قليلة. في العادة يتلقى (إيميلات) عمل من المدرسة التي يعمل فيها، عدا ذلك لا أحد يراسله، أما صندوق الرسائل المزعجة فيعج بالإيميلات من شركات الإعلان والإشهار ومن بعض النصابين كذلك، من قبيل مبروك لقد فزت بنصف مليون دولار، وهنيئًا سيارة الفيراري في انتظارك، وتهانينا جهاز الآيفون من نصيبك...

هذه المرة أيضا كان الإيميل يحمل تهنئة وتبريكات، ولكنه في الصفحة الرئيسة، حدَّث أحمد نفسه:

- المؤمن كيِّس فطن ولا يلدغ من الجحر مرتين، سبق وصدقتهم ذات مرة وكدت أدفع ثمن سذاجتي حريتي.

قبل سنوات تلقى أحمد رسالة إلكترونية لأول مرة وهو بعد حديث التعامل مع الحاسوب والإنترنت، فقد تخلص من أيام الجاهلية والأمية أخيرًا بعد أن دفع راتب شهرين لشراء جهاز حاسوب جديد وتوصيله بالإنترنت ضعيفة السرعة، ولكنها تفي بالغرض، وتحفظ ماء وجهه حين يقف جنبًا إلى جنب بجوار زملائه وهم يتبادلون الأحاديث عن المنتديات والمواقع وحتى الألعاب، تلك الأحاديث التي كان يراها في أيام خلت من أعاجيب الزمان، أصبحت اليوم تثير ضحكه، فمن كان يتصور أن ضغطة زر كافية لتجعلك تلج إلى كل تلك العوالم.

نقر على زر الدخول وقرأ: مبروك لقد حالفك الحظ، شركة تويوتا اختارتك لتمنحك مبلغ نصف مليون دولار، كل ما عليك فعله إبلاغنا بمعلوماتك الشخصية وطرق التواصل معك، ارتجف كل عضو

فيه، وتسارعت دقات قلبه حتى كادت تسمع من بعد أميال. فرك عينيه وأعاد القراءة مرات وكرات، ليس حلمًا بل واقعًا جميلا. لم يدخر جهدًا ولم يضيع وقتًا، وبدأ في التواصل معهم محدثًا نفسه:

– نصف مليون دولار، شيء لا يصدق. لطالما حلمت بالمشاركة في برنامج من سيربح المليون، ولكنه كان مليون ريال وليس دولار، طيب كيف سأقسمه؟ وأين سأخبئه، لا أثق في البنك ولا في الوسادة...

سأل نفسه كرّة أخرى وبدأت حبات العرق تنزل بسخاء من جبينه، قبل أن يقطع صوتُ والدته لحظات التفكير الحاسمة:

– بني، تعال وشاركنا الطعام، تبًا لهذا الجهاز فمنذ اقتنيته اشتقنا للجلوس معك، أختك زهرة بحاجة إلى دروس تقوية في اللغة العربية، وعمر بحاجة إلى بدلة رياضية، ووالدك قد ابتلع آخر حبة دواء خاصة بالضغط هذا الصباح.

تنفس أحمد في أعماقه ودون أن يلتفت أجاب أمه:

– هوني عليك، قريبًا ستكون كل طلباتكم مجابة وفوقها بوسة.

انصرفت الأم وهي تتمتم:

– من أين يا حسرتاه، فقد أكل الحاسوب راتب الشهرين الفائت والقادم، حتى الجيران ملوا مني فلا أطرق بابهم إلا للاستدانة وإراقة ماء الوجه.

بعد دقائق تلقى أحمد ايميلًا جديدا، هذه المرة أرسلوا له رقم هاتف ليتواصل معهم مباشرة، خرج من البيت على جناحي نعامة، وقصد الهاتف العمومي وشكل رقم الهاتف الطويل، لا بأس فهو رقم خارجي على كل حال، من الجانب الآخر من بقعة من العالم لا يعرفها سمع صوتًا لا يكاد يجمع كلماته، وبصعوبة تبين له أن المتحدث يتكلم باللغة الإنجليزية، كان أحمد يحب هذه اللغة ويتقنها، فأجاب بكل طلاقة:

– ألو مرحبًا، معك السيد أحمد، تلقيت إيميلكم هذا الصباح وأنا أتواصل معكم لإنهاء إجراءات استلام الجائزة.

– ألو هل أنت معي؟

يبدو أن الطرف الآخر كان بصدد ترجمة ما سيقول لهذا استغرق وقتًا طويلا ثم أجاب:

– أوه أعتذر، الخط يتقطع ولم أسمعك جيدا، أرجو إرسال مبلغ ١٠٠ يورو عبر الوسترن يونيون كرسوم على عملية التحويل، سأوافيك في الإيميل بكافة المعلومات، مع السلامة.

– طييط، طييط...

كاد أحمد ينفجر غيظًا، فقد خيبت المكالمة ظنه، وكانت أقصر مما تصور، ودون أن يعي بدأ يضرب الهاتف بقبضة يده النحيلة ولم يتوقف إلا وجسمه يرتفع إلى السماء، رمق الرجل بنظرة حائرة، كان صاحب المحل ضخم الجثة، لم ينتبه إليه وهو جالس أول ما دخل، المال يعمي البصر والبصيرة، لكنه انتبه الآن بشكل جيد وهو كالريشة في يده:

– اسمع يا هذا، لا تصب غضبك وجنونك على هاتفي، أنا أدفع رسوم الضرائب والكراء لتأتي أنت وتكسر مصدر رزقي، هات ١٠٠٠ دينار وانصرف قبل أن أهشم عظامك.

بدأ أحمد يتصبَّب عرقًا بعد أن سمع سعر المكالمة وحدث نفسه:

– هل كنت أكلم سكان المريخ مثلا؟

أخرج الورقة النقدية وهو يلعن حظه على يومه، كانت الورقة الأخيرة في جيبه، وسوف يدخل صفر اليدين إلى بيته، سيكون اليوم خاليًا من الخبز والحليب، حتى قطعة الدجاج الصغيرة التي أوصته والدته بشرائها لتعد بها مرقًا أحمر لم يعد بوسعه شراؤها، "لكن لا بأس، هانت، مسألة وقت وأعوض الجميع، سأشتري بيتًا واسعا وسيارة، وسوف أخطب أجمل فتاة، وسأرسل أبي إلى أكبر المستشفيات ليعالج، وزهرة سوف أسجلها في مدرسة خاصة، وعمر سألحقه بأكبر الأندية ليحقق حلمه في كرة القدم، أما والدتي فسأحضر لها خادمة تكفيها عناء التعب والغسل والطبخ والنفخ، ستكون الحياة أجمل مع هذه الثروة الطائلة، بدأ يسوّف ويعدد الأحلام والأمنيات، ثم استدرك "لكن مهلا كم أصبح سعر صرف الدينار الآن، علَيَّ الرجوع إلى البيت سريعًا لأبحث في الإنترنت، فليسقط الدينار إلى أسفل السافلين، فكلما نزل كانت عملية التحويل أكبر، ولكن هل حقًا أنا الأستاذ أحمد الذي يلقي على مسامع تلاميذه دروسًا في القيم والوطنية والعملة المحلية؟ على أي حال تلك الأقوال التي أمضغها يوميًا لم تطعمني لحما أحمر إلا يوم عيد النحر، ولم تركبني سيارة إلا سيارات الأجرة، ولم تسكني بيتًا لائقًا إلا بيتًا بحجم علبة الكبريت، حظينا به في إطار البناء الاجتماعي والخدمات التي تتفضل بها الدولة بين الحين والآخر على الطبقة المعدمة".

طرد أحمد كل الأفكار السلبية، ومسح عن عينيه غمامة اليأس والبؤس وطار إلى بيت صديقه خالد كعصفور حالم، ليقترض منه قرضا حسنا، سيكون القرض الأخير على أية حال.

– خالد، أمم تعرف... أنا خجل منك ولكن...

– نعم، نعم، أنا الذي أعرف، تريد قرضًا جديدًا.

وقبل أن يكمل قاطعه أحمد وقد تهللت أسارير وجهه:

– سيكون الأخير أعدك، بل سأكون أنا البنك الذي يقرضك ومن دون فوائد متى طلبت.

عقد خالد حاجبيه مندهشًا، فهو أعرف الناس بأحمد الذي لا يحسن حرفة غير حرفة التعليم التي دخلها مكرهًا بعد أن تعذر عليه إيجاد عمل آخر، فالتعليم في بلده لا يحقق الرفاهية للمرء، وإذا انتهى الشهر ولم يستدِن فسيسجل ذلك الشهر ضمن إجازاته وأيامه السعيدة.

استطرد أحمد شارحًا:

– آه، نعم، معك حق لتستغرب، سوف تعرف كل شيء قريبًا إن شاء الله عندما أرد لك مالك ومعه هدية، أقول هدية وليس فوائد ربوية، كما تعلم مازال فيّ بضعة من الإيمان.

زم خالد شفتيه وسأل:

– خمسة آلاف دينار كالعادة؟

امتقع وجه أحمد وأردف:

– بل تزيد قليلا، أو لنقل كثيرًا، نوعًا ما... مئة يورو بما يعادل المليونين.

صرخ خالد:

– ماذا، مليونان، هل ستشتري نعجة للعيد، حتى إن العيد لا يزال بعيدًا، آه لا تقل لي فقط أنك أتلفت جهاز الحاسوب؟

– لا،لا، لا يوجد شيء مما افترضته، يمكنك القول هو نوع من اليانصيب الحلال طبعًا، أعني لن أشارك في

قمار لا سمح الله لكن المئة يورو ستجلب لي نصف مليون دولار، لا تحرق المفاجأة، اتركها للغد وسوف تفهم.

أخذ أحمد المال وطار سريعًا إلى البنك، وطوال الطريق وهو يبني ويهدم، يشتري ويبيع، يعقد صفقات ويلغي أخرى، وعند باب البنك استيقظ من أوهامه وأحلامه حين أخبره الموظف أن إرسال الأموال إلى الخارج ممنوع بقوة القانون، كاد يقع من طوله، فلما أسرّ للموظف بالمبلغ الموعود كشف عن ضحكة صفراء خبيثة، وحدثه أن لا يخلو الأمر من استثناءات، وفي لمح البصر رتب له موعدًا مع مدير البنك الذي استقبله استقبال الضيوف المميزين، وبعد أخذ ورد وتفاوض، سمح المدير بإرسال المبلغ مقابل نسبة يحصل عليها لا تقل عن العشرة آلاف دولار، تنهد أحمد في داخله وحدث نفسه:

– هانت، أربع مئة وتسعون ألف دولار تستحق التضحية بهذا المبلغ الزهيد، ولنعدها صدقة أو زكاة أو حجرة في عين الحسود.

خرج أحمد من البنك بعد أن عقد الصفقة، وطار إلى بيته المتواضع الذي ستكون هذه الليلة المقمرة آخر ليلة فيه، فعندما يقبض الأموال سيكون أول شيء يفعله شراء بيت يليق بمليونير.

رفع مدير البنك السماعة يريد التحدث مع الموظف لإنهاء عملية التحويل، قبل أن توحي له بنات إبليس بفكرة أخرى، حسدًا من عند نفسه، وقديما حسد أبوهن آدم، وبدل أن يتصل بالموظف اتصل برقم الطوارئ.

غَذَّ أحمد الخطى نحو بيته يريد الاستلقاء على سريره، بعد يوم عصيب قضاه بين الكر والفر، ومن بعيد تراءى له موكب من السيارات ذات اللون الواحد، خيل إليه للحظات أنه موكب العرس الذي زف إليه عروس أحلامه، فهل سيفاجئه القدر بعروس أتت على بساط الريح، مثلما فاجأه بثروة جاءت مع الأثير، لكنها لم تكن سوى سيارات الشرطة، جاءت لتعتقله بتهمة غسيل الأموال بعد أن بلغ عنه مدير البنك حين قرر التضحية بمبلغ عشرة آلاف دولار نظير أن لا يستفيد هذا الرجل الأجرب الأحمق ويصبح من رجال الأعمال الجدد الذين يمنُّون عليه بأموالهم، ويسمعونه في كل مرة أسطوانة" لولا أموالنا ما قامت للبنك قائمة".

وبعد تحقيقات مطولة تم إطلاق سراح أحمد، وإسقاط تهمة غسيل الأموال، والتعامل بأموال مشبوهة، غير أن دليل البراءة كان على أحمد أقسى من العقوبة نفسها، عندما قال له رئيس الشرطة، نافثًا دخان السيجارة نحو وجهه:

– القانون لا يحمي الأغبياء والسذج والمغفلين، مرة أخرى لا تصدق كل ما يقال لك، ثم أطلق ضحكة عالية كانت كفيلة بأن تجعل رأس أحمد ينحني خجلا حتى كاد يقبل الأرض.

استيقظ أحمد من رحلة الشرود هذه، واستل نفسًا من أعماقه، ثم قال:

" آه لا أعاد الله تلك الأيام" ثم اعتدل في الجلسة وهمّ بحذف إيميل التهنئة، قبل أن يأخذه الفضول ليطلع عليه من باب العلم فقط، ثم يحذفه على وجه السرعة، لن يخسر شيئًا، فماذا لو كان فاز حقًا إذ ما أكثر المسابقات التي شارك فيها، أجمل صورة، أحسن مقال صحفي، أطول رسالة... تلك شعرة لا يجب قطعها إلا يقينا، ثم قرأ:

– تهنئة بمناسبة عيد المرأة السعيد، كل عام وأنت بخير سيدتي.

الحج في زمن كورونا

بقلم: منهاج محمد ـ جمهورية الهند

ندرك جميعًا ما يشهده العالم من تفشٍّ لفيروس كورونا للعام الثاني، ولذلك جاء القرار بقصر حج هذا العام وحصره على حجاج الداخل في المملكة العربية السعودية. وهذا قرار موفق، فكما أوضحت وزارة الصحة السعودية فإن أخطار هذه الجائحة لا تزال مستمرة، ولا سيما بعد التحوُّر الذي حصل للفيروس، وانتشاره بشكل حاد في بعض الدول.

في بلدي الهند لم نكد نوشك على الرجوع إلى الحالة الطبيعية بعد الموجة الأولى لجائحة كورونا، حتى جاءت موجة ثانية أشد وطأة بسبب تقاعس المواطنين عن الاحترازات الصحية، مما أدى إلى الموجة الثانية، وازدياد عدد الإصابات والموتى بشكل هائل.

عندما كتبت هذا المقال (٢٧ شوال)، تجاوز عدد الموتى ٣٤٧ ألفاً، وفقدت البلاد السيطرة، حيث طالت طوابير المرضى أمام المستشفيات وامتلأت أسرتها بالمصابين، وانتهت الأدوات الطبية المخزّنة، ونفدت أسطوانات الأكسجين.

مدَّ العالم يده بالمساعدة إلى الدولة الجريحة، وأرسلوا السفن والطائرات مليئة بأسطوانات الأكسجين والأدوات الطبية، وكان للمملكة العربية السعودية دورها الذي يُذكر فيشكر.

وفي مثل هذه الظروف الحرجة إذا استعرضنا أحوال مجتمع الهند نستطيع أن نقول إن هذا الفيروس الخطير لم يصب صحة الأجسام فحسب، بل أصاب كل نظم الحياة، وتأثر به الجميع، العمال والطلاب، الصغار والكبار.

ومن المجالات التي تأثرت بهذه الأحوال، المدارس والجامعات، ونشعر نحن في مدارسنا وجامعاتنا بكثير من التعب، لما أصابنا من انقطاع للدراسة، وللظروف التي نعانيها لمشكلات في التقنية، حيث لا تتمكن الجامعات من الانتظام في الدراسة عن بعد، كما فعلت بعض الدول.

وكذلك الطلاب الصغار تأثروا بهذه الأحوال بشكل عميق، فالمدارس كلها في الهند علَّقت الدراسة قبل سنة واحدة ولا يزال الانقطاع إلى أجل غير مسمى، فالدارسون في الهند غير معتادين على التعلم الرقمي كالبلاد الأخرى.

ولم يكن الأثر قاصرًا على طلاب العلم وحدهم، بل تأثر العمال المغتربون أيضا، كثيرون منهم لم يستطيعوا العودة إلى عملهم وفقدوا مهنهم، ويبحثون عن عمل في داخل البلد، زد إلى ذلك الذين فصلوا من أعمالهم بسبب تدهور اقتصاديات شركاتهم أو إفلاس أصحاب الأعمال بسبب الإغلاق التام والطويل، فانتشرت البطالة في كل مكان، وأدى ذلك إلى فقر مدقع في بعض الأماكن. بعض الولايات في الهند نجحت في تقوية نظام التوزيع العام لمكابدة هذه المحنة، وكذلك اضطلعت بعض الجمعيات الخيرية بمشاريع مختلفة لمساعدة المحتاجين. وهنالك عمالة هندية بالخارج لم يستطيعوا العودة إلى بلدهم خوفاً من فقدان أعمالهم، فلا يستطيعون الصبر على مفارقة عائلاتهم كل هذا الوقت، مما يؤثر فيهم نفسيًا بشكل عميق.

مع كل هذه الظروف الصعبة فإن قرار قصر حج هذا العام ١٤٤٢هـ على المواطنين والمقيمين في المملكة العربية السعودية قرار سليم، لحماية صحة الحجاج وضمان سلامتهم. نسأل الله أن يرفع هذا البلاء فيعود جميع المسلمين إلى الرحاب الطاهرة، ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق.

رابطة العالم الإسلامي

MUSLIM WORLD LEAGUE